

عروبة مصر وأقباطها

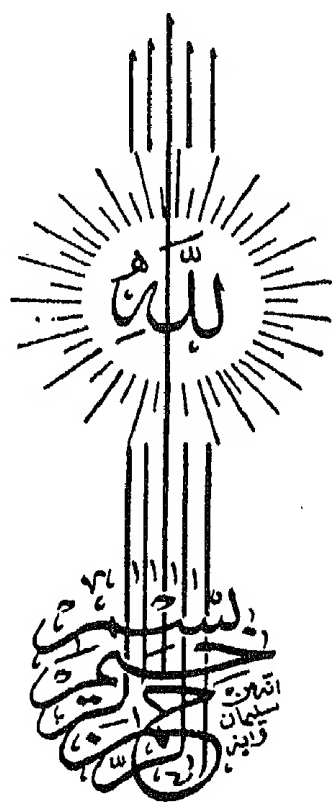
على طريق مشروع حضارى قومى

المجلة العامة لكتبة الاسكندرية
رقم المجلد 320.263
رقم التسجيل : ٢٠١١

محمد إبراهيم المرشدى

تقديم : د. محمد عمارة

دار الشرق الأوسط للنشر



تقديم

بقلم : د. محمد عمارة

فى الرؤية الإسلامية تصل قداسة وحدة الأمة إلى مرتبة الفريضة الدينية .. ﴿إن هذه أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (١) .

وهذه الوحدة فى الأمة التى هى من ثمرات التوحيد الدينى ، تبلغ فى القرآن الكريم مرتبة « الآية » من آيات الله فى الاجتماع البشرى .. ومنزلة « النعمة » العظيمة التى أنعم الله بها على عباده .. فعليها يجب أن يحافظوا ، حتى يستطيعوا شكر الذى أنعم عليهم بها .. ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (٢) .. ﴿وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم﴾ (٣) ..

وهذه الأمة — التى تعنى الجماعة فى مصطلح العربية — لم يقف نطاقها وتتوقف حدودها عند « أمة الدين » ولا « أمة العرق .. أو اللون .. أو اللسان — اللغة » .. فعالمية الإسلام قد جعلت « للأمة » فى مفهومه وفى حضارته : أبوابا دائمة الانفتاح ، لتكون الأمة دائمة الاستيعاب ، ومستمرة فى التحقق عبر المكان وعلى مر الزمان .. فهى قد بدأت بصاحب الدعوة ، عليه الصلاة والسلام .. وعبر العشيرة .. فالقوم .. فالقبائل والشعوب والأقوام .. وفى استيعاب لأهل الكتاب .. بل وأهل الديانات الوضعية — أو الإلهية التى فقدت كتبها الدينية — عبر هذه الدوائر والحلقات ..

(١) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٩٣ .

استمرت الأمة ، فى التاريخ الحضارى الإسلامى وعلى امتداد عالم الإسلام
دائمة التحقق ، والانفتاح ، والاستيعاب ..

وإذا كانت أولى التطبيقات — التى جسدت هذا المفهوم النظرى —
قد جسدها وسجلها أول دستور للدولة الإسلامية الأولى — « صحيفة »
دولة « المدينة » .. فإن هذا التسجيل الدستورى ، الذى وضع فى الممارسة
والتطبيق ، قد أقام أمة متعددة الديانات ، وموحدة فى الرعاية السياسية بجماع
المواطنة التى تحقق مساواة الوحدة ووحدة المساواة .

ففى « مواد » هذه « الصحيفة » نقرأ : « المؤمنون والمسلمون : أمة
واحدة من دون الناس .. ويهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين
دينهم .. ولهم النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .. » (١) ..
فالمناصرة بين الأمة ، على تعدد الشرائع الدينية لأبنائها .. والأسوة
— أى المساواة — بينهم جميعا : نص دستورى ، صاغه رسول الله ﷺ ،
وطبقه قبل أربعة عشر قرنا فى أولى دول الإسلام ..

وعبر تاريخنا الحضارى تفردت الحضارة الإسلامية بتأليف الشعوب
والقبائل والأقوام والشرائع الدينية — لأهل الكتاب .. ولمن لهم « شبهة
كتاب » .. بل ولأهل الديانات الوضعية — فى الهند والصين وما حولهما ..
تفردت الحضارة الإسلامية بهذه الخصوصية ، فى الوقت الذى ضاق فيه صدر
الحضارة الغربية بالتعددية ، ليس فقط التعددية فى الديانات ، بل وحتى
بالتعددية فى المذاهب داخل النصرانية ؟! ..

إن دولة الإسلام وحضارته ، منذ ولادتهما وعلى مر تاريخهما كانا
عوامل توحيد وانفتاح واستيعاب للملل والنحل والأقوام ، على النحو الذى
يحقق « التنوع فى إطار الوحدة » لأهل هذه الملل والنحل والأقوام .. فلم
تكن معايير « الولاء » و « البراء » هى معايير التنوع فى الملل والنحل

(١) أنظر نص « الصحيفة » بكتابنا « الإسلام وحقوق الإنسان » ص ١٥٨ — ١٦٢ طبعة
القاهرة — دار الشروق سنة ١٩٨٩ م .

والأقوام ، وإنما كان معيار « الولاء » و « البراء » و « الموالاتة » و « المعاداة » هو موقف أهل هذه الملل والنحل من الاختراق الأجنبي لسياج دار الإسلام ، ومن فتنه المسلمين عن دينهم .. فليست للإسلام مشكلة مع الشرائع الدينية الأخرى .. وليس للمسلمين مشكلة مع أبناء الملل والشرائع الدينية الأخرى .. وإنما المشكلة بين الأمة — بمللها ونحلها وأقوامها — وبين أعدائها ، الذين يقاتلونهم في الدين ، أو يخرجونها من الأوطان .. ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) .

فوحدة الأمة — التى تتسع لتعدد مللها ونحلها — هى القاعدة .. والحضارة الإسلامية — الموحدة ثقافتها لمختلف الملل المكونة للأمة الواحدة — هى السياج الذى يميز الأمة ، حضاريا ، عن غيرها من الأمم الأخرى ذات الحضارات المغايرة .. فالتمايز فى الشرائع الدينية : « تعددية » فى إطار « وحدة الحضارة » التى تجسد وحدة الأمة الجامعة لمللها ونحلها ، التى تتساوى فى حقوق وواجبات المواطنة ، وتتناصر أمام الذين يفتنون أبناءها فى الدين أو يخرجونها من الديار أو يظاهرون على هذا الإخراج ! ..

ذلك هو الإطار الفكرى — « الدينى — الحضارى » — الذى حكم ويحكم قضية الوحدة الوطنية والحضارية فى رؤية الإسلام .. والذى جسده حقيقة واقعة حضارة الإسلام عبر تاريخنا الطويل ..

واليوم .. وفى مواجهة التكتلات الكبرى ، ذات التوجهات الحضارية المغايرة .. وأمام أهمية القوة المتغطرة ، التى تفتح فى سياجنا الحضارى العديد من ثغرات الاختراق .. تتزايد أهمية استدعاء هذا الإطار الفكرى لقضية الوحدة الوطنية .. وللمشروع الحضارى الواحد للأمة الواحدة ..

(١) سورة الممتحنة : ٨ ، ٩ .

وإذا كانت مصر — لأسباب كثيرة — قد مثلت وتمثل العمود الفقري للمشروع العربى .. الذى يمثل العمود الفقري للمشروع الإسلامى .. فإن وحدتها الوطنية — فى زمن التكتلات وعصر الاختراقات — هى طوق النجاة لجماعتها الوطنية ، ولأمتها القومية ولأبناء الشرق الإسلامى أجمعين .. وفى هذا الإطار تأتى أهمية هذه الدراسة الجادة ، المتميزة بالحس الحضارى الناضج ، والتوجه الموضوعى لـ « عروبة مصر وأقباطها على طريق مشروع حضارى قومى » .. والتى نرجو أن تثمر الثمرة الطيبة للكلمة الطيبة إن شاء الله ...

دكتور

محمد عمارة

تقديم

بقلم : المؤلف

الاعتقاد الشائع لدى طائفة من الناس أن معظم المسلمين في مصر الآن ينحدرون من سلالة العرب الذين وفدوا في جيش عمرو بن العاص عند فتح مصر ، ثم ممن وفد بعد ذلك من قبائل الجزيرة العربية في أعقاب الفتح . وإن أقباط مصر جنس آخر ، فهم أحفاد سكانها الأصليين ، وهم ورثة الحضارة المصرية القديمة التي قضى عليها الفتح الإسلامي .

ولكن عندما فرغت من قراءة كتابي « عروبة مصر قبل الإسلام وبعده » للأستاذ محمد عزة دروزة ، و « وحدة تاريخ مصر » للأستاذ محمد العزب موسى ، وتثبت من مراجعتهما ، تأكد لي أن ذلك الاعتقاد الشائع - بكل جزئياته - لا أساس له ، بل هو يناقض الحقائق التاريخية مناقضة بينة . فعروبة مصر قديمة إذ تسبق الفتح الإسلامي بقرون عديدة ، حيث كانت هجرة القبائل العربية . لاسيما من جنوب الجزيرة إلى مصر - عبر الحبشة والصومال والسودان - مستمرة منذ فجر التاريخ . كما اتضح من بحوث المؤرخين والأثريين وعلماء اللغة - أجنب وعرب - إن اللغة المصرية القديمة ، واللغة العربية ، أصلهما واحد .

كما أثبت التاريخ أن الفاتحين العرب إبرياء من دم الحضارة الفرعونية ، إذ أن المصريين أنفسهم - بعد أن دخلوا في المسيحية - هم الذين انهالوا في ذروة حماسهم للدين الجديد - على كل رموز الحضارة

الفرعونية ، فخربوا معابدها ، وحطموا تماثيل الآلهة ، وطاردوا كهنة الديانة المصرية بل وقتلوا منهم الكثيرين باعتبارهم وثنيين وسحرة . حتى الكتابة الهيروغليفية حاربوها وحطموا لوحاتها ، وتحولوا إلى الكتابة بالحروف اليونانية ... إلخ . كل هذا حدث في مصر في القرون الأولى للمسيحية ، وقبل البعثة المحمدية بزمان طويل .

وتأكدت من حقيقة هامة أخرى ، هي أن الأغلبية العظمى من مسلمي مصر الآن هم أحفاد لأقباط مصر الذين دخلوا في الإسلام عقب الفتح العربي وعلى مدار القرون التالية ، وأن أقلية ضئيلة من مسلمي مصر اليوم هم أحفاد العرب الفاتحين .

وأثناء قراءاتي تلك ، كانت بعض الأحداث المؤسفة تقع من حين لآخر بين المسلمين والأقباط في أنحاء شتى من أرض مصر ، فنبئت فكرة هذا الكتاب ، وشرعت في تتبع تاريخ العلاقة بين أقباط مصر ومسلميها منذ الفتح الإسلامي حتى الآن . وألم بى العجب عندما وجدت أن تلك العلاقة كانت طوال تلك القرون ، علاقة مودة حميمة ، وترابط وثيق ، لدرجة أن الباحثين الأوروبيين الذين كانوا يقصدون مصر في القرن الماضي وقبله لدراسة أحوالها السكانية ، قرروا أنه كان يتعذر عليهم تمييز الأقباط من المسلمين ، بسبب « وحدة » العادات والتقاليد وأسلوب التفكير ، وإن الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم كان فى مكان العبادة . حتى هذا الاختلاف الوحيد لم يكن ذا شأن ، إذ من فرط المودة والتآلف ، كان المسيحيون كثيرا ما يبنون مسجدا ويقدمونه هدية لإخوانهم المسلمين . وفى المقابل ، كان المسلمون يعيدون بناء الكنائس إذا ماتقادت ..

إذن ، فالحوادث الدامية فى سنواتنا الأخيرة مؤشر واضح على أن نكسة خطيرة لحقت بذلك التآلف التاريخى الفريد .. ، وعندئذ اشتد عزمى على إعداد هذا الكتاب ، ولقد التزمت فيه بالأمانة العلمية ،

وتتبع الأحداث التاريخية وأثبتها كما هي من أوثق المصادر . وإن حرصت على ألا يأخذ الكتاب شكل البحث الأكاديمي ، الخالص ، والجاف . فلم يكن ذلك غايتي ، وإنما كان هدفي أقرب ما يكون إلى إخراج كتاب في « التربية الوطنية أو القومية » ، يقوم حقا على أساس من التاريخ الموثق ، وإن لم يكن « كتاب تاريخ » ، ويهتم بإثبات الوقائع التاريخية ذات العلاقة ، دونما حاجة إلى استقصاء الحدث إلا فيما يتطلبه موضوع الكتاب .

ولقد كنت حريصا أيضا على أن يخرج الكتاب بالحجم والأسلوب الملائمين بحيث يشجعان القارئ العادي على الالمام بكل فصوله . فهي في مجموعها تؤدي غرضا واحدا وإن تعددت مراحلها : الكشف عن وحدة أصل الشعب المصري ، والقاء ضوء قوى على وحدة نسيجه ، وتاريخ العلاقات الحميمة بين عنصرية الدينيين ، ثم وحدة تراثه الثقافي والحضاري ، ووحدة مصيره .

وكان لابد من الاعتراف بواقع مايجري الآن على الساحة السياسية والفكرية في مصر ، لشدة ارتباط ذلك الواقع بموضوع الأقباط . وأعني بذلك وجود تيار إسلامي سياسي وجودا قويا من العبث إنكاره . فذهبت أستقصى أفكار ذلك التيار المعتمدة ، من واقع أدبياته وكتابات رموزه ، ومدى تأثير تلك الأفكار - سلبا أو إيجابا - على الحقوق القانونية والسياسية لأقباط مصر كمواطنين ، وأفردت لذلك فصلا وبعض فصل ، كي أفسح مساحة كافية لإزالة كثير من المخاوف التي لا مبرر لها ، والأفكار الخاطئة التي تعلقت بالعقل الديني لكثير منا ، ولوثت مجرى حياتنا بكثير من الكدر في السنوات الأخيرة .

وأخيرا ، أقدم امتناني للأستاذ طارق البشرى ، فقد أفدت كثيرا من مرجعه التاريخي الوثيق « المسلمون والأقباط » ، ولالأستاذ فهمي هويدي ، أحد أبرز رموز التيار الإسلامي المستنير ، عن كتابه القيم

« مواطنون لاذميون » ، والدكتور محمد جابر الأنصارى الأستاذ بجامعة الخليج عن كتابه « تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى » ، وللاستاذ محمد عزة دروزة ، والأستاذ محمد العزب موسى عن كتابيهما اللذين ذكرتهما فى صدر هذا التقديم .

كما أشكر ابنتى حسناء التى وظفت تخصصها فى شئون المكتبات والوثائق فى إمدادى بعدد وافر من البحوث والدراسات والمقالات ذات العلاقة .

والله أسأل أن ينفع شباب الأمة بهذا الكتاب ، وأن يجعل هذا العمل المتواضع لبنة فى صرح مشروع حضارى قومى نستعيد به عزتنا ..

القاهرة فى أول فبراير ١٩٩٣ م

محمد إبراهيم المرشدى

الفصل الأول

بحوث المؤرخين عن أصل المصريين
القدماء وأصل لغتهم

الفصل الأول

بحوث المؤرخين عن أصل المصريين القدماء وأصل لغتهم

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة ان للعروبة فى مصر جذورا قديمة تمتد إلى عشرات القرون قبل الإسلام ، وتشمل معظم سكانها القدماء ، وعروبة مصر أصفى من عروبة بلاد الشام والعراق ، لأنه لا يوجد فيها ما يوجد فيهما من كتل كبيرة أعجمية العنصر واللغة^(١) .

ويذكر الدكتور حسن كمال فى « تاريخ السودان القديم » أن المصريين والسودانيين من أصل واحد ، وإنهم جاءوا إلى وادى النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال ، ويشير فى هذا إلى مقاله تيودور الصبلى من أن المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية ، وإنهم نزلوا شواطئ أثيوبيا ، ثم تقدموا نحو الشمال ودخلوا مصر ، ولهذا يقول الأثيوبيون أن مصر مستعمرة من مستعمراتهم ، إذ أن سكانها القدماء جاءوا إليها منهم .

وجاء فى كتاب « العقد الثمين » للعالم الأثرى أحمد كمال ان المصريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم « يون » ، وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها^(٢) . كما جاء فى كتاب « التاريخ العام الكبير » للأستاذ أحمد رفيق أن معظم علماء تاريخ مصر من الألمان يقررون أن المصريين القدماء جاءوا من آسيا الغربية ، بعضهم عن طريق باب المندب ، وبعضهم عن طريق برزخ السويس ، وإن بين لغتهم واللغات السامية فى المفردات والصرف والنحو تشابها كبيرا^(٣) .

(١) محمد عزة دروزة — عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ص ٣

(٢) أحمد كمال — العقد الثمين ص ٤٥ — ٤٨ .

(٣) أحمد رفيق — التاريخ العام الكبير ص ٥٥ — ٥٦ .

ويقول مؤلفا كتاب « تاريخ مصر إلى الفتح العثماني » ، أن المعلوم يقينا أن قوم الملك « مينا » — موحد الوجهين البحرى والقبلى — كانوا قبل ظهوره يقطنون جنوب مصر ، ومما يدل على أن أجدادهم من الساميين أن أقدم ما وصل من لغتهم يغلب فيه العنصر السامى على العنصر الأفريقى . وقد جاءوا إلى مصر ومعهم حضارة أرق مما كان فيها ، وهم الذين أتوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية^(١) .

ويذكر فيليب حتى أن موجة من المهاجرين الساميين انساحت من الجزيرة العربية إلى مصر عن طريق أفريقية الشرقية حوالى سنة ٣٥٠٠ ق م ، وكان فيها (أى مصر) جماعة من الحاميين ، فامتزجت بها ، وتألف من هذا المزيج سكان مصر القدماء^(٢) .

ويقول : لو دققنا النظر فى اللغة المصرية القديمة لوجدنا تشابها واضحا بينها وبين اللغات الأشورية ، والبابلية ، والآرامية ، والكنعانية ، والعربية والحبشية ، يسوغ معه ردها إلى أم واحدة^(٣) .

ويرى العالم الأثرى الكبير الأستاذ سليم حسن فى بحثه عن أصل المصريين ، ان مصر كانت مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامى ، أفريقى الأصل ، ينسب إلى لىبى أفريقيا الشمالية المسمين بالبربر ، وإلى الصوماليين فى شرق أفريقيا ، ثم أخذت تدخل على هذا الشعب تغييرات عن طريق الهجرة الوافدة ، أهمها عناصر جديدة من أصل آسيوى جاءت من شبه جزيرة العرب ، عن طريق البحر الأحمر من جهة « قفط » أو طريق أعالي النيل ، أو عبر سينا إلى الدلتا ، وقد أدخلوا معهم مدنية أرق من مدنية الجنس الحامى الأصل الذى لم يكن يعرف سوى الآلات والأوانى الحجرية ، وأدخلوا فيما أدخلوا التعدين وخاصة النحاس ، كما أدخلوا ديانتهم وكتابتهم ، وفنونهم ، ونظمهم الاجتماعية والسياسية^(٤) .

(١) سفيدج الأسكندرى — تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ص ٦ ، ٧ .

(٢) فيليب حتى — تاريخ العرب المطول ص ١١ .

(٣) فيليب حتى — سورية والسوريون من نافذة التاريخ ص ١٣ .

(٤) سليم حسن — مصر القديمة ص ١٤٠ — ١٤٥ .

ويستخلص محمد عزة دروزة من بحوث المؤرخين أن بداية الانسياح العربى إلى مصر كانت فى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد^(١) . ويقول إن الأسر المالكة الست الأولى فى المملكة المتحدة القديمة (٣٢٠٠ — ٢٤٧٥ ق . م) كانت من العرب ، وقد اتخذ ملوك تلك الأسر الصقر رمزا لهم على عادة سكان الجزيرة العربية^(٢) .

ويتتبع الأستاذ دروزة الموجات العربية التى تتابعت على مصر بعد عهد الدولة القديمة ، فيقول إن موجات من العرب اجتاحت مصر عن طريق بلاد النوبة ، واستطاعوا حكم البلاد ، وكونوا الأسرتين الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، ثم جاءت موجات أخرى عن طريق سيناء وحكموا الدلتا وكونوا الأسرة الرابعة عشرة . ووفدت موجات من الليبيين — المرجح أن أصلهم عرب نزحوا من الجزيرة العربية إلى الصحراء الليبية فى عصور سحيقة — حكموا مصر الوسطى حيث كونوا الأسرتين التاسعة والعاشر .

ويذكر الأستاذ دروزة أن الهجرة زادت كثيرا من بلاد الشام إلى مصر فى عهد الهكسوس واستمرت بعد طردهم من مصر ، وبذلك اتسع نطاق التبادل والتمازج العربى فى مصر فى عهد الهكسوس (١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق . م) ، وأصبحت اللهجة العربية القديمة التى كانت يتكلم بها الهكسوس وأهل الشام هى اللهجة السائدة خاصة فى مصر الوسطى والوجه البحرى^(٣) .

وينقل الأستاذ سليم حسن عن المؤرخ « لوريه » الذى استخلص آراءه من دراسة دقيقة للآثار قوله : إن قبائل وشعوبا من بلاد لوبية (ليبيا) ، وآسيا الصغرى ، وجنوب مصر ، جاءت إلى مصر فأنشأت فى مقاطعاتها الجنوبية والشمالية ممالك وإمارات ، وكان لكل منها إلهها الخاص ، ورمزها الخاص ، ثم تنازعت تلك الشعوب وتحاربت ، ثم تصنفت إلى أربع طوائف أو ممالك ، رمز إليها فى الآثار برموز النخلة والبوصة والثعبان والنسر . ثم تألف من النخلة والبوصة مملكة ، ومن الثعبان والنسر مملكة . ثم وفد على البلاد قوم من بلاد العرب عن طريق الصومال ، وتأصلوا فيها ، وكانوا جنسا ذا مواهب عظيمة ،

(١) محمد عزة دروزة — عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

فأقاموا مملكة ثالثة رُمز لها فى الآثار برمز الصقر ، وقد تغلبت هذه المملكة فى النهاية على الملكتين الأوليين ، فأصبحت الممالك الثلاثة موحدة تحت سلطان وصولجان واحد . وبذلك قامت المملكة الفرعونية التى كان مينا أول ملك لها ، أو أول ملك عُرف من ملوكها(١) .

والمعروف تاريخيا أن الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة ، والتى حكمت مصر بين عامى ١٥٨٠ و ١٣٤٠ ق . م ، وكان أول ملوكها أحمس الأول ، استطاعت تكوين امبراطورية مصرية عظمتى تمتد من حوض دجلة والفرات شمالا ، وتشمل بعض أنحاء العراق وجميع جزيرة الفرات ، وبلاد الشام ، وتمتد فى وادى النيل جنوبا إلى الشلال الرابع فى بلاد النوبة ، وغربا إلى الصحراء الليبية ، كما شملت بلاد بونت .

ومغزى ماتقدم أن مصر حكمت بلاد العراق والشام مائتين وأربعين عاما حدث خلالها نمازج وتبادل فى اللغات والعادات ، وتنقل الأشخاص والجماعات بين مصر وتلك البلاد التى كانت غالبية سكانها من الجنس العربى على ما عُرف من الآثار . ومن ذلك إن جماعة من الكنغانيين (وهم من الجنس العربى) كانت مساكنهم وممالكهم فى فينيقية (فى منطقة اللاذقية الآن) وفلسطين ، وشرق الأردن ، وفدوا على مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وسكنوا فى منطقة أبى الهول ، وكان لهم فى بلادهم إله اسمه « حور » ، فأطلقوا اسم « برحور » على أبى الهول . وكلمة « بر » فى اللغة الكنغانية تعنى « ابن » ، وتطورت تلك الكلمة مع الزمان فصارت أبا الهول . وقد وُجدت لوحة تعود إلى زمن المنحوتب الثانى سُمى فيها أبو الهول باسم الإله « حور »(٢) .

وفى عهد تحتمس الرابع (من فراعين الأسرة الثامنة عشرة) انفجرت ثورة كبيرة فى فلسطين فقمعها ، ونفى عددا كبيرا من أهل فلسطين (من الجنس العربى) إلى مصر ، وأسكنهم فى مستعمرة أنشأها فى جوار المعبد الجنائزى(٣) .

(١) سليم حسن — مصر القديمة ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٠ — ٣١٠ . (٣) المرجع السابق ج ٥ ، ص ٥٨ .

ولم يقتصر حكم مصر لفلسطين والشام على عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وإنما استمر هذا الحكم في معظم عهود الأسر التالية . ودليل ذلك أن شيشنق أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٠ — ٧٢٠ ق . م) مد سلطان مصر إلى جميع فلسطين وبلاد الشام بعد أن انكمش الحكم المصرى عن تلك البلاد في عهد الأسرتين السابقتين . وقد عُرفت أخبار ذلك الغزو من نقوش على بوابة معبد في طيبة . ثم مما ورد عنها في الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك ، والاصحاح الثانى عشر من سفر أخبار الأيام الثانى^(١) .

ولقد أوردنا تلك النصوص التاريخية الخاصة بغزوات ملوك مصر القديمة للبلدان العربية مثل الشام وفلسطين والعراق للتدليل على قيام عوامل التمازج وتبادل اللغات والعادات بين مصر وأهل تلك البلاد ، إلى جانب تأثير موجات الهجرة العربية إلى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ على نحو ماقدّمنا .

ويسوق المؤرخون دليلا آخر على استمرار التمازج والاتصال بين عرب الجزيرة ومصر طوال عصور التاريخ القديم حتى العهد الرومانى سواء سلما عن طريق الهجرة ، أو حربا عن طريق الغزوات المتبادلة . ذلك إن ملكة « تدمر » الزباء بنت عدى ، وهى عربية صريحة العروبة ، تدرت على حكم الرومان حوالى عام ٢٥٠ م ، فطردت حامياتهم ، وبسطت سلطانها على بلاد الشام وحوض الفرات ومصر ، وولت ابنها وهب اللاه ملكا على تلك المملكة العربية العظمى ، وقد عُثر على نقود مضروبة فى الأسكندرية تعود إلى سنتى ٢٧٠ و ٢٧١ م على أحد وجهيها صورة مزدوجة لوجهي وهب اللاه ابن الزباء ، وأوليانس الحاكم الرومانى .

ويروى التاريخ أن الزباء لما شعرت بأن أوليانس الرومانى يدبر لخرق الاتفاق معها ، أمرت بمحو صورته من النقود ، وضربت نقودا جديدة ، فقد عُثر على نقود مضروبة فى الأسكندرية تعود إلى سنة ٢٧٣ م عليها صورة وهب اللاه فقط .

ويقدر الباحثون أن وحدة الأصل والدم والطبائع بين المصريين وقبائل

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ص ٣٥٧ — ٣٦٢ ترجمة سليم حسن .

العرب التى تكونت عبر عشرات القرون هى التى سهلت الفتح العربى الإسلامى لمصر ، وساعدت على سرعة اندماج المصريين بالفاحين العرب بقيادة عمرو بن العاص^(١) .

ويقول عالم الأجناس الطيب أليوت سميث أن العرب الأصلاء ، والمصريين القدماء ، ينتمون إلى أصل مشترك واحد كان يسكن كل المنطقة التى يخترقها البحر الأحمر قبل زمن طويل من بداية التاريخ المكتوب^(٢) .

ويرى الدكتور سليمان حزين أنه على الرغم من الغزوات التى تعرضت لها مصر فى العصور الفرعونية ، فقد احتفظ المصريون بصفاتهم الجسمية التى ربطتهم منذ عصور ما قبل التاريخ بسكان غرب آسيا الذى أصبح يُعرف فيما بعد بالشرق العربى ، ويقول : « وحتى عندما جاء العهد الأغريقى ، ونزحت العناصر الأغريقية إلى شمال مصر وغربها ، بقى أثر الأغريق محصورا فى نطاق ضيق ، ولم يلبث أن تحلل فى كتلة السكان الأصليين ، ولم يغير شيئا من الصفة العامة للسكان . وبعد الفتح الإسلامى ، نزحت إلى وادى النيل عناصر جديدة من القبائل العربية ، ولكن لم يترتب عليها تغيير التكوين العام للمصريين ، لأن هذه العناصر الجديدة كانت متشابهة فى قسماتها العامة مع سكان مصر . ولأن صلات السلالة والدم بين وادى النيل الأدنى وشمال الجزيرة العربية صلات وثيقة وقديمة .. وعندما حلّ الأتراك محل العرب فى حكم مصر ، كان عددهم محدودا ، وانحصر تأثير النمط التركى — وهو يختلف عن النمط المصرى العربى من حيث استدارة الرأس ، وشكل الأنف ، ولون البشرة وبنية الجسم — فى مناطق وطبقات خاصة من السكان . وكان عديم الأثر تماما فى البيئة الريفية^(٣) .



(١) محمد عزة دروزة — المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) أليوت سميث — المصريون القدماء واصل الحضارة ص ٤٠ .

(٣) د. سليمان حزين — تاريخ الحضارة المصرية .

أصل اللغة المصرية القديمة

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة : « واضح مما تقدم أن موجات الجنس العربى — قبل دور عروبه الصريحة — أخذت تنساح إلى مصر قبل الأزمنة التاريخية المعروفة ، وتنتشر فيها ، وتنشئ الممالك الصغيرة ، ثم توحيدها فى مملكة واحدة فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد ، وإنها (أى الموجات العربية) ظلت بعد ذلك دائبة على الاتجاه نحوها (أى مصر) من الجنوب والشمال ، واستطاعت أن تنجح المرة تلو المرة فتدخل بأعداد كبيرة حيناً ، وأعداد صغيرة حيناً ، ويعنف حيناً ، وبهدوء حيناً ، وتملاً أنحاء مصر ، وتكون صاحبة السلطان والمآثر فيها ، وإن جلّ الأسر المالكة بل كلها من الجنس العربى ، منها من كان من الأرومات والموجات القديمة السابقة للأزمنة التاريخية ، ومنها من كان من الأرومات والموجات المتأخرة .

« ولقد كان من نتائج ذلك أن غدت المفردات العربية القديمة (التى يحلو للباحثين أن يسموها أحياناً بالسامية) تشكل غالبية مفردات لغة مصر القديمة . قرر هذا بريستيد العالم الأثرى الشهير ، فقال ان الساميين طرأوا على مصر منذ أقدم الأزمنة ، وظلوا يطرأون عليها ، وعمموا لغتهم ، وصبغوا مصر بصبغتهم ، وإن اللغة المصرية حافظت على ساميتها بمرور الزمن ، وبالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان . وقرر أحمد كمال العالم الأثرى الشهير أن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد ، وإن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلا نتيجة إسقاط بعض الكلمات فى بلاد العرب ، وبقائها فى وادى النيل أو العكس ، ثم نتيجة لما يعترى الكلمات من القلب والإبدال ، وما يطرأ على اللغات من تغير بمعاملة الأجانب .

كما قرر العالم الأثرى أحمد نجيب أن أصول اللغة المصرية مشتقة

من اللغات العبرانية والآرامية — وهما عربيتان حسب اصطلاحنا — وإن الضمائر المتصلة والمنفصلة فيهما متشابهة .

وقال المؤرخ التركى أحمد رفيق — نقلا عن علماء وباحثين ألمان وإنجليز سمّاهم فى كتابه « الحضارة المصرية » : إن بين اللغة المصرية واللغات السامية فى مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة يسوغ القول معها انها كلها من أصل واحد ، كما قرر جوستاف لوبون أن كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها (مفرداتها) يتركب من عناصر سامية ، حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع .

وقال أدولف أرمان ، وهرمان رانكان فى كتابهما « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » : إنه من الممكن إرجاع اللغة المصرية القديمة إلى مجموعة من اللغات السامية ، بالإضافة إلى بعض اللغات الأفريقية الشرقية والشمالية التى امتزجت بها . وقد أثر عن العالم الأثرى أحمد كمال أنه وضع قاموسا فيه آلاف المفردات المصرية القديمة المتشاركة فى المعنى والمبنى مع المفردات العربية كدليل على ماقرره وأوردناه من أن أصل اللغة المصرية والعربية واحد .

ويقرر الدكتور عبد العزيز صالح « أن اللغة المصرية القديمة التى تكتب بالهيروغليفية ، تضم كثيرا من الأصوات والصيغ والمفردات السامية ، وهذا لايدل على مجرد الاقتباس ، بل الأرجح وجود أصل مشترك بينهما . وقد عرفت اللغة المصرية فى قواعدها النحوية كثيرا من الخواص الموجودة فى اللغة العربية من حيث وجود حروف العين والحاء والقاف ، وهى حروف اقتصر تداولها على اللغات السامية ، ثم من حيث شيوع الأفعال ذات المصدر الثلاثى فيها ، وغلبة الأفعال المعتلة الآخر بينها ، ومن حيث مأخذت به فى تركيب عباراتها من سبق الفعل على الفاعل ، والحاق الصفة بالموصوف ، وتأکید الجمل الأسمية ببدئها بحرف ، واستخدام صيغة المثنى ، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض الأسماء والصفات المؤنثة ، واستخدام تمييز البعض عن الكل ، واستخدام ياء النسبية وياء الإضافة للمتكلم ، وكاف المخاطب فى حالة المضاف إليه والمعطى له ، وكذا نون الجمع وواو الجماعة ، وإضافة ميم المكان وميم الأداة لتكوين أسماء مركبة ، وكل ذلك مما لا يتأتى إلا عن طريق وحدة الأصل بين اللغتين .

ويستمر الدكتور عبد العزيز صالح في بحثه القيم فيقول : « كما أن هناك مفردات كثيرة مشتركة بين اللغة المصرية القديمة ، واللغة العربية الفصحى ، سواء المهجورة أو المستعملة إلى اليوم ، وسواء كانت تنطق بنصها ، أو مع تغييرات طفيفة نتيجة لاختلاف اللهجات المكانية ، ومنها أفعال وأسماء مختلفة ، فمن الأفعال التي تستخدم في اللغتين بنصها ومعناها : حسب . فهم . ختم . خبّ . خر . شد . تم . تم . بخر . وهى . وهن . هوى . زعق . عشق . حزن . نقم . نعى . قطف . بصق . ومن الأسماء : ذئب . جناح . قمح . سبى . قذ . موت . منامة . بم . بركة . منحة . همهمة . حطمة . عين . صباع (أصبح) . أيد (يد) . ودن (أذن) .

» وهناك أيضا مشابهات في الضمائر ، فضمير أنا العرى هو أنوك الفرعونى ، ومعنى كان ينطقها المصريون القدماء (م . عاى) ، ومعنا ينطقونها (م . عانا) ، ومعك ينطقونها (م . عاك) (١) .

وإذا اعتبرنا أن الفتح الإسلامى لمصر بقيادة عمرو بن العاص هو بداية عهد عروبة مصر الصريحة ، فيجب أن نذكر حقيقة ذات دلالة قررها المؤرخون في هذا السياق ، وهى أن ذلك الفتح لم يقم به الجيش الإسلامى وحده الذى دخل به عمرو قادما من الشام وفلسطين ، بل انضم إليه بعض القبائل البدوية الضاربة في شبه جزيرة سيناء المصرية ، حيث أن قبائل صريحة العروبة كانت تقطن سيناء منذ القرن الثالث الميلادى ، منها قبائل بلما التى انضمت إلى حملة الزباء حين جاءت إلى مصر واستولت عليها على نحو ما سبق بيانه .

ومن الطبيعى أن يواكب انتشار الإسلام في مصر بعد الفتح الإسلامى ، إنتشار اللغة العربية بين أهل مصر الذين دخلوا في الإسلام ، باعتبارها لغة القرآن والشعائر الإسلامية ، فضلا عن كونها لغة القادة والولاة في الدولة . وساعد على ذلك أيضا استمرار تدفق الموجات العربية من الجزيرة العربية

(١) د. عبد العزيز صالح من مقالة له في الأهرام في ٦ / ٨ / ١٩٦٩ .

والشام إلى مصر ، في شكل حملات ، أو هجرة أفراد وجماعات ، وامتزاج كل أولئك الوافدين بأهل مصر امتزاجا كاملا .

ولقد تحقق ذلك بفضل « الفكرة العقيدية » لدى الفاتحين والوافدين المسلمين إزاء الشعوب والجنسيات الأخرى التي تدخل معهم في الاسلام . فالفتح الإسلامي لايعتبر نفسه — كالفاتح الروماني أو الفارسي — طبقة عسكرية واجتماعية متميزة على أهل البلدان المفتوحة ، فلا يتيهون عليهم بعزة النصر وقهر الغلب ، ولا هم يؤمنون — كالرومان مثلا — بأنهم جنس يعلو على سائر الأجناس ، له لغته الخاصة وأسلوب حياته الخاص . وإنما غاية الفاتحين المسلمين أن يحققوا « الأخوة » بينهم وبين الشعوب التي دخلت في الإسلام ، وعندئذ لا يكون هناك فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، بنص تعاليم نبي الإسلام .

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة : « ان والى مصر عبدالله بن عبد الملك بن مروان بذل لغة الدواوين في مصر ، فنقلها من القبطية إلى العربية ، ولم يكن هذا ميسورا لو لم يكن جمهور كبير من أهل العلم بالحساب وشئون الدواوين من نصارى القبط ومسلميهم قد ثقفوا العربية واستعربوا خلال المدة التي لم تكن جاوزت الستين عاما على الفتح الإسلامي^(١) .

ويعلق الأستاذ محمد العزب موسى على ما أثبتته العلماء من وحدة الجنس وأصل اللغة بين المصريين القدماء والعرب فيقول : « وعلى ذلك يمكن القول باطمئنان ان مصر لم تكن غريبة على العرب ، والعرب لم يكونوا غرباء على مصر عند الفتح الإسلامي ، وإنما جاء هذا الفتح قمة لتلك العلاقات العرقية والثقافية والحضارية الضاربة في أعماق تاريخ الشعبين ، وكان ذلك من أهم الأسباب التي مكنت للعرب الفاتحين في مصر ، وجعلت المصريين — وهم الذين استعصوا على الرومان رغم جبروتهم — يرحبون بالعرب الفاتحين

(١) محمد عزة دروزة — المرجع السابق ص ٩٨ .

ويختلطون بهم في شعب واحد^(١) .

ونختتم هذا الفصل بتقرير للمؤرخ العالمى الكبير « فيليب حتى » يقول فيه : « كان سكان مصر يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، تربطهم بهم مالا يربطهم بحكامهم البيزنطيين الغاصبين ، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق إنقلاب اجتماعى سياسى ، استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، وجاء الإسلام مهيبا بالشرق أن ينهض من كبوته ، بعد ألف سنة اجتاحتها فيها سطوة الغريب »^(٢) .



(١) محمد العزب موسى — وحدة تاريخ مصر ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) فيليب حتى — تاريخ العرب ص ١٩٤ .

الفصل الثانى
أسباب دخول الأقباط فى الإسلام
بعد الفتح العربى

الفصل الثانى

أسباب دخول الأقباط فى الإسلام بعد الفتح العربى

ترددت قديما وحديثا تفسيرات مغرضة عن أسباب دخول الأقباط فى الإسلام بعد الفتح العربى ، أهمها الزعم بأن الأقباط الذين أسلموا لم يكن إسلامهم عن إيمان بالدين الجديد ، وإنما كان هروبا من دفع الجزية ، وتزلفا للحكام الجدد .. ، وقد علق الأستاذ بتلر على ذلك قائلاً : « ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم إنما كان يهدف إلى المنافع الدنيوية .. ، قد يكون البعض قد فعل هذا ، غير أن هذا محال بالنسبة إلى الكل الذين اعتنقوا الدين الجديد ، فأغلبهم آمنوا حقاً به ، لما رأوه من عدل الحكام المسلمين ورحمتهم واستقامتهم . وساعدهم على ذلك أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة من الأقباط كرهوا انحراف المسيحية عن تعاليم صاحبها وما أمر به من حب وتسامح ورجاء فى الله ، فقد نسى المسيحيون ذلك فى غمار ثوراتهم وحروبهم بين المذاهب والأحزاب المسيحية . فلجأ العاقلون منهم إلى الإسلام معتصمين بأمنه ، مستظلين بسماحته وبساطته » .

ويؤيد توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » رأى بتلر فيقول : « كان البعاقبة يشكلون الأغلبية العظمى من المسيحيين ، وقد لاقوا العسف من اتباع مذهب الروم . وكان بعضهم (أى اليعاقبة) يُعذب ثم يلقي فى اليم . وهلك كثير منهم ، وقد قدم الفاتحون الإسلاميون إلى القبط حياة تقوم على الحرية التى لم يظفروا بها من الروم ، وكفل لهم الحكم الإسلامى حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ولم يضع يده على شىء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب الولاة المسلمون عملاً من أعمال السلب والنهب التى كانت قاعدة الحكم الرومانى » .

ويضيف توماس أرتولد : « ليس هناك شاهد على أن ارتداد أقباط مصر عن دينهم وتحولهم إلى الإسلام كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط من الحكام الجدد . بل لقد تحول كثير منهم إلى الإسلام قبل أن يستكمل الفتح ويتوطد الحكم الإسلامى فى مصر كلها . وقد يكون بعض الذين ارتدوا عن المسيحية إلى الإسلام قد فعلوا ذلك للخلاص من الجزية ، ولكن الثابت أن هذا الدافع لم يكن وراء إسلام أغلبية المسيحيين .

ويمضى توماس أرنولد قائلا : « إن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزبا منفصلا ، والشعائر التى جاهدوا للاحتفاظ بها وقتا طويلا ، ودفعوا ثمنها غالبا ، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ماتكون غموضا وإيهاما من الناحية الميتافيزيقية ، ولا شك أن كثيرا منهم تحولوا — بسبب ما استولى على نفوسهم من حيرة وضجر وإعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم بينهم — إلى الدين الإسلامى حين رأوا فيه عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة .. وربما ساعد عدم وجود نظام كنسى مستقل يقدم طريقة لتوضيح ما غمض من تلك العقائد .. على زيادة عدد الذين تحولوا إلى الإسلام(١) .

ويقول الأستاذ محمد العزب موسى فى كتابه « وحدة تاريخ مصر » :
خلال القرنين الأخيرين من الحكم البيزنطى ، أى من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الميلادى ، تدهورت أحوال مصر تدهورا بالغا لم يسبق له مثيل حتى فى ذروة عصر الاضطهادات الوثنية . ولم تكن نظرة الحكام البيزنطيين المسيحيين إلى مصر تختلف عن نظرة أسلافهم الرومان الوثنيين ، فمصر فى نظرهم ليست سوى أجران قمح ، تمد القسطنطينية بالغذاء كما كانت تمد روما من قبل . ولا يهم بعد ذلك استقرار فيها الأمن أو اضطراب ، سادت الرفاهية أم عمّ الشقاء . وإنما كل ما يهم الدولة وعمالها فى مصر أن ينتزعوا ولو آخر حفنة من القمح من المصريين سدادا للضرائب التى كان عبثها يقع كاملا على كاهل المصريين ، بينما يعفى منها كليا أو جزئيا الأجانب المقيمون فى البلاد ، الناعمون بخيراتها من بيزنطيين ويونان ورومان ويهود .

(١) توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام — ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين

ص ٩٢ وما بعدها .

ويقول الأستاذ محمد العزب موسى : « وأخذت الكوارث تتوالى تباعاً على مصر ، فاختل الأمن ، واضطربت الأحوال ، وانتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، وأغارت قبائل البدو والنوبة على أطراف البلاد . وأدى ذلك إلى توقف الكثير من مظاهر الحياة المصرية المألوفة منذ آلاف السنين ، إبتداءً من فلاحة الأرض إلى زيارة المعابد والكنائس .

غير أن أسوأ ما تعرض له المصريون في ظل الحكم البيزنطى تلك المظالم والاضطهادات التى كانت ترتكب في حقهم باسم الدين ، أى بسبب اختلاف مذهب الدولة البيزنطية عن المذهب اليهقوى الذى استقرت عليه الكنيسة المصرية منذ مجمع نيقية عام ٣٢٥ م .

ويروى الأستاذ العزب موسى كيف حاول هرقل استرضاء أقباط مصر فطلب من كبار رجال الأكليروس إيجاد صيغة توفيقية بين مذهب بيزنطة القائل بوجود طبيعتين للمسيح ، طبيعة لاهوتية ، وأخرى ناسوتية ، ومذهب الكنيسة القبطية المصرية القائل بوجود طبيعة واحدة لاهوتية للمسيح . ولقد توصل رجال الأكليروس لصيغة وسط تقوم على الاعتراف بأن للمسيح « إرادة » واحدة ، وتمنع الخوض في « طبيعتها » ، هل هى واحدة أم ثنائية .

« ومع أن في هذه الصيغة تنازلاً ظاهراً لصالح أقباط مصر إلا أنهم رفضوها ، وكان يجلس على كرسى الكرازة المرقسية في ذلك الحين الأنبا بنيامين ، وهو من أقوى آباء الكنيسة القبطية في كل العصور ، وكان محبوباً من الشعب بقدر ما كان صلباً في الحق .. وعقد مجمعا لرجال الدين والشعب بالأسكندرية ، حثهم فيه على الثبات على عقيدتهم .. وتنبأ بموجة قاسية من المحن تستمر عشر سنوات ، يزول بعدها الغم . وكتب إلى جميع الأساقفة والقسس يأمرهم أن يلوذوا بالصحارى والجبال حفاظاً على عقيدتهم الدينية ، وخرج هو إلى الصحراء الغربية ومنها إلى الصعيد حيث استقر في دير صغير بالقرب من قوص » (١) .

ثم يمضى صاحب كتاب « وحدة تاريخ مصر » في عرض المحن والآلام

(١) محمد العزب موسى — وحدة تاريخ مصر ص ١٥٥ — ١٥٧ .

الرهبية التي لحقت بالقسس والرهبان من سفك دماء ، وسجن ، وهدم كنائس .. ويقول أن الأنبا بنيامين ظل متخفياً من دير إلى دير ، في الصعيد ، وفيافي الصحراء ، يشد أزر شعبه ، ويحثه على المقاومة والصمود . واستمرت موجة الاضطهاد عشر سنوات كما تنبأ من قبل — قتل خلالها خلق كثيرون ، وهدمت معظم الكنائس القبطية ، ونُهبت كنوزها وذخائرها ، واستحكمت العداوة في قلوب المصريين تجاه جلادهم البيزنطيين ، وصاروا يتطلعون إلى قوة تنقذهم من هذا البلاء المقيم . وفجأة ، وفي قمة اليأس ، فتح باب الخلاص على مصراعيه بمقدم الفاتح العربي عمرو بن العاص^(١) .

ويروى بعض المؤرخين أن الأنبا بنيامين رأى في منامه قبيل الفتح أن « مصر ستفتح لأناس مختونين » ، تجدد خلاصها على أيديهم ، ونقل المؤرخان المصريان الرافعي وعاشور عن أقدم كتاب روى أحداث فتح مصر ، للمؤرخ ابن عبد الحكم ، قوله ان الأنبا بنيامين عندما بلغه مقدم عمرو بن العاص ، جمع اساقفته وأبلغهم أنه لا تكون للروم دولة في مصر ، وإن ملكهم قد انقطع . وأمرهم باستقبال عمرو . والثابت أن القبط كانوا عوناً للعرب في فتح بلادهم ، خاصة عندما زحف عمرو إلى الأسكندرية ، فكانوا يرمون لهم الجسور ، ويحضرون لهم المؤن والمعلومات المفيدة ، ويحاصرون معهم قلاع البيزنطيين^(٢) .

ولابد أن أخبار الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام كانت تترى على أقباط مصر — بواسطة التجار — مصحوبة بأخبار الرحمة والعدل عن الجيوش الإسلامية ، كما لابد أن رفض عمر بن الخطاب أن يصلي في كنيسة القيامة بفلسطين حتى لا يطالب بها المسلمون من بعده .. لابد أن نبأ كهذا وغيره أثلج صدور المصريين المحزونين ، فاصبحوا على استعداد نفسي لاستقبال جيش المسلمين بالموودة والأعزاز .

وعندما استتب الأمر لعمرو بن العاص في مصر ، ودانت له البلاد حتى الأسكندرية ، استهل عهده بأن أرسل يستدعى الأنبا بنيامين من صومعته في

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٢) الرافعي وعاشور — مصر في العصور الوسطى ص ٣٦ .

البرية ، وبعث إليه عهداً يؤمنه فيه على حياته وحياة القبط . ويطلب منه العودة إلى كرسيه ، ومباشرة شئون كنائسه ، ثم أعلن عمرو على رؤوس الأشهاد بعد أن العقى بالبطريك بنيامين أنه لم يشاهد في حياته كلها كاهناً مسيحياً أظهر ذيلاً ، وأنقى صحيفة ، وأجل منظرًا منه^(١) .

ولم يقصر عمرو بن العاص عهده على البطريك وحده ، وإنما أعطى العهد لأهل مصر جميعاً ، بالأمان على أنفسهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبانهم ، وبرهم ، وبحرهم .. إلى آخر العهد الثابت في صحائف التاريخ .

ويقول الأستاذ « بتلر » في كتابه « فتح مصر » ان الأقباط اليعاقبة كانوا يقدمون في ظروف كثيرة مساعداتهم سرا للسرايا العربية (وحدات الجيش العربى التى كانت تجوب البلاد للاستيلاء على الحاميات الرومانية) ، وأحياناً أخرى كانوا يقدمون تلك المساعدات علناً مما أياأس الروم ودفعهم إلى نفض يدهم من مصر . وتوطد السلطان العربى على معظم أنحاءها فى وقت قصير لم يستغرق أكثر من سنة^(٢) .

ويضيف الأستاذ بتلر أن أهل مصر السفلى (الدلتا) حضروا إلى عمرو بعد فتحه الأسكندرية وشكوا إليه مما أوقعه الروم بقراهم من النهب والسلب ، وقالوا إنهم فى صلح مع العرب الأمر الذى كان يقتضى مدافعة الجيش الإسلامى عنهم وحمايتهم من عسف الروم . وقد أقرّ عمرو شكواهم وأمر بتعويضهم عما فقدوه^(٣) .

ويلقى الدكتور فاروق العادلى رئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة ، نظرة تاريخية على ظروف تحول أقباط مصر إلى الإسلام فيقول : كان المصريون أهل حضارة ، وبالتالي كان من السهل عليهم أن يستشعروا صدق الدعوة الإسلامية وعقيدها فى صورتها البسيطة غير المعقدة .. واعتنقت مصر الإسلام ، ولم يكن جديداً عليها ، فمضامينه وقيمه نفذت إليها من قبل بالفطرة السليمة ،

(١) فيليب حتى — تاريخ العرب ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) بتلر — فتح العرب لمصر — ترجمة أنى الحديد ص ١٨٩ .

(٣) بتلر — المرجع السابق ص ٤٢٣ .

والدفع الحضارى ، فكثير من القيم التى أدركها المصرى القديم بفطرته ، أكدّها القرآن الكريم فى آية واحدة ﴿واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب﴾ .

ويقول الدكتور العادلى : « عرفت مصر حياة التدين منذ القدم ، فلقد نشأت الديانة المصرية القديمة فى أرض مصر كلها ، وتوصل المصرى القديم لمعنى الإيمان بالله الواحد ، كما آمن بالبعث والحساب فى الآخرة ، فلما هبطت الرسالات السماوية تقبلها المصريون دون عنف ولا مقاومة كما فعلت شعوب أخرى ، إذ جاءت تلك الأديان مصدقة لأصول مايعتقدون . ولقد غيّرت غالبية المصريين دينهم عبر التاريخ الطويل مرتين ، مرة حين اعتنقوا المسيحية ، ومرة حين اعتنقوا الإسلام ، فإذا سلمنا بأن المصريين اعتنقوا المسيحية عن رضا وبلا قهر ، فلماذا لا يكون ذلك شأنهم مع الإسلام ؟

ويقول : « لم تكن مصر تنظر إلى العرب بالبغض كما كانت تنظر إلى الروم . فقد كانت تنظر إلى العرب بمودة فى نفس الوقت الذى كانت تشعر فيه بحضارتها العريقة ، وآية ذلك أنها كانت تتندر أحيانا على العرب الفاتحين فى مواجهتهم ، فعندما بنى عمرو بن العاص حماما قال القبط ضاحكين : يصلح للفأر ! ، فبنى عمرو حماما آخر كبيراً نزولا على ملاحظة أهل العلم والحضارة .

ويمضى الدكتور العادلى فى بيان الأسباب الأخرى التى دفعت القبط إلى دخول الإسلام طواعية فيقول : « لم يجعل العرب من أنفسهم طبقة حاكمة تستأثر بالسلطة ، فقد أشركوا المصريين معهم فى كافة الوظائف حتى العليا منها ، وولّى المأمون على إحدى مدن مصر حاكما مسيحيا ظل محتفظا بمسيحيته .. كما أصدر المأمون كتابا فى المواريث أمر فيه برّد تركة الميت من أهل الذمة إلى أهل ملته إذا لم يخلف وريثا ، بينما كانت تركة المسلم الذى لم يترك وريثا تذهب إلى بيت المال » . ومثل تلك السياسة لا بد أن تقنع الكثيرين من الأقباط بالدخول فى الإسلام^(١) .

(١) د. فاروق محمد العادلى وسعد رمضان — الشخصية المصرية ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٩٠ .

ويقول المؤرخون ان الوظائف التي تولاها الأقباط في مصر بعد الفتح لم تقتصر على الوظائف المالية والحسابية مثل جمع الضرائب ، بل كان منهم عمال (ولاية) على الأقاليم ، مثل ميناك حاكم المنطقة الشمالية ، وشنودة والى الريف ، وثالث تولى حكومة الفيوم . وكان بالحكومة المركزية في القسطنطية موظفان قبطيان لإدارة مصر العليا ، ومصر السفلى .

وفي عهد مروان بن الحكم ترقى إثناسيوس الرهاوى إلى منصب الرئاسة على ديوان الأسكندرية ، وتلقب في المكاتبات الرسمية بلقب « الكاتب الأفخم » . وفي عهد عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا اسمه بطرس ، وحاكم مريوط قبطيا أيضا اسمه تاو فانس^(١) .

لقد بدأ دخول المصريين في الإسلام في وقت مبكر عقب الفتح . ولم يكن دافعهم الخلاص من الجزية ، فقد كانت دينارين في العام ، كما لم تكن مفروضة على الجميع ، وإنما على القادرين ماليا وجسمانيا ، ولا يعقل أن يترك أحد دينه تهربا من أداء هذا المبلغ الضئيل لاسيما وان أقباط مصر عرفت عنهم — على نحو ماقدما — الصلابة في العقيدة ، والعناد في الرأي في زمن القهر البيزنطى ، وهم إذ يدفعون بعد الفتح دينارين كجزية ، فقد أعفوا من ضرائب ثقيلة متعددة كانوا يدفعونها من قبل للبيزنطيين .

وقد حدث أن والى الأموى بشر بن صفوان استعظم تناقص الخراج بسبب كثرة الخارجين من النصرانية إلى الإسلام ، وأراد أن يضع حدا لهذه الظاهرة ، وأنبأ الخليفة عمر بن عبد العزيز بذلك فأغلظ له عمر القول والمعاملة ، وقال له مؤنبا : « إن الله قد بعث محمدا هاديا لا جابيا » .

وإذا كان الإسلام يعفى المسلم من الجزية ، فإنه يفرض عليه الزكاة ، وهى تزيد عن الجزية ، كما أنه لا يعفيه من خراج الأرض ، ويوجب عليه الجهاد (أى التجنيد) ، ولا يوجب على الذمى (فى ذلك الزمان) .. ومعنى ذلك أنه لم يكن هناك تخفيف مالى على من يدخل في الإسلام بحيث يدفع الأقباط

(١) الرافعى وعاشور — المرجع السابق ص ٣٧ .

إلى ترك دينهم ، ثم أن الإقبال على الإسلام لم يقتصر على فقراء القبط ، بل انتشر بنفس القوة بين سرائهم ووجهائهم^(١) .

ويجمع كثير من المؤرخين ، منهم المستشرق الإيطالي « كيتاني » على أن السبيين الأساسيين لدخول الأقباط في الإسلام هما : أولا ما انتشر عن الإسلام في الآفاق وما لمسوه هم من معاني الرحمة والعدل في المعاملة . وثانيا ضيق أقباط مصر بالخلافات المذهبية التي استحكمت في المسيحية ، ونشرت البلبلة والجدل ، في مواجهة بساطة العقيدة الإسلامية التي تنأى عن الجدل . ويقرر المؤرخون أن معدل دخول الأقباط في الإسلام ظل يضطرد حتى بلغ في الفترة من ١٢٤ إلى ١٢٨ هـ (٧٤١ — ٧٤٥ م) أربعة وعشرين ألف قبطي ، وفي عام ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) زاد المعدل كثيرا حتى لقد أسلم في قليوب وحدها ٤٥٠ شخصا في يوم واحد^(٢) .

وأخيراً يقول الأستاذ بتلر : « إذا كانت ثمة ظاهرة انتشرت بقوة السلاح ، فهي سيطرة العرب السياسية ، وليست عقيدتهم الدينية » .

سياسة عمرو بن العاص والتزامه بعهده :

عدّد الأستاذ محمد عزة دروزة الاصلاحات العمرانية والإدارية التي أدخلها عمرو بن العاص في مصر ، وقال انه نظم الادارة والقضاء ، ووضع خططاً عادلة لجباية الضرائب على قاعدة العدل الذي التزم به . وعنى عناية كبيرة بشئون الرى من كرى الخلدجان ، وبناء المقاييس على النيل ، وإنشاء القناطر والجسور والأحواض . فاكسب بذلك قلوب الأقباط الذين رأوا عهداً جديداً من الطمأنينة والحرية وتعفف الحكام .. ، ومهد ذلك لاندماجهم في العروبة الصريحة الإسلامية^(٣) .

والتزم عمرو بن العاص في سياسته لمصر بالعهد الذي أعطاه لشعبها عند الفتح ، فحرّم أن يؤذى المصريون في أجسامهم استيفاءً للضرائب ، وتعهد بالآ

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) الرافعي وعاشور — المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) محمد عزة دروزة — عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ص ٩٤ .

تزيد عن جنيهم للرأس فيما عدا الشيخ والمرأة والطفل . واتبع عمرو هذه السياسة بدقة حتى لقد حاسبه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان على قلة خراج مصر ، وعزله الثاني لهذا السبب ، وعندما قال له عثمان بعد أن ولّى عبد الله ابن أبي سرح على مصر وبعث هذا مزيدا من الخراج « أرى اللقاح^(١) قد درّت من بعدك يا عمرو » ، أجابه قائلاً : « حين أعجفتم فصالها » ، وفي رواية أخرى « ولكنها اضرتّ بينها » . وحين عُزل عمرو بعد ولايته الأولى لم يتخلف عنده من المال ما يغنيه ، وإلاّ لما قال له عثمان : « أرى جبتك قملت منذ عزلناك ! »^(٢) .



(١) اللقاح : النوق (جمع ناقة) .

(٢) عباس محمود العقاد — عمرو بن العاص ص ١٧٣ .

الفصل الثالث

تعريب مصر

هل الفتح الإسلامى هو الذى أزال فرعونية مصر ؟

الاعتقاد الشائع لدى طائفة من الناس هو أن أقباط مصر هم الورثة الحقيقيون والمخلصون للحضارة الفرعونية ، وأبناؤها الشرعيون ، وإن الفتح الإسلامى لمصر هو الذى قضى على الحضارة المصرية القديمة ، وقطع وشائج التاريخ بين مصر الفرعونية ومصر الإسلامية . وهذا الاعتقاد خاطئ تاريخيا .

وتحت عنوان « أسباب الانقطاع النفسى » بين مصر الحديثة ومصر الفرعونية ، أفرد الأستاذ محمد العزب موسى فى كتابه « وحدة تاريخ مصر » فصلا ضافيا أورد فيه أسباب ذلك الانقطاع ، وأرجعه أولا إلى عوامل الضعف التى تعمل عملها فى مصر الفرعونية منذ عهد مبكر يرجع إلى الأسرة العشرين التى أسسها رمسيس الثالث حوالى عام ١٢٠٠ ق . م حيث تعرضت مصر فى تلك المرحلة المبكرة . للغزوات والأطماع الأجنبية والثورات الداخلية التى مزقت حكم البلاد بين أمراء الأقاليم والكهنة ثم الحكام الأجانب ، فتعاقب على حكمها اللوبيون (٩٤٥ ق . م) والنوبيون ، والأشوريون ، والفرس ، والبطالسنة ، والرومان الغربيون ، والبيزنطيون حتى عام ٦٤٠ م (١) .

ويقرر الأستاذ العزب موسى أن مصر خلال تلك العهود الأجنبية المتطاولة تدهورت عقيدتها القديمة ، وأصبحت مجرد طقوس ومتون يغلب عليها طابع السحر والخرافة ، وانتشرت عبادة الحيوانات لذاتها لا باعتبارها رموزا للآلهة . وأمام سيطرة الأجانب وسيادتهم ، وانحلال الجيش المصرى وزواله ، فقد المصريون ولاءهم لوطنهم ، وقتلت روح مصر القديمة المبدعة الخلاقة ، وفقد المصريون الرغبة فى الاستقلال ومقاومة الحكم الأجنبى ، ولم يلبثوا أن هربوا إلى المسيحية تاركين حضارتهم الوطنية جثة ميتة لاسبيل إلى إحيائها .

(١) محمد العزب موسى — وحدة تاريخ مصر ص ٤٦ — ٥٣ .

ثم يقول : « ومّا زاد من انفصام المصريين نفسيا عن تاريخهم القديم أن الحضارة المصرية لم تمت موتا طبيعيا هادئا ، وإنما لفظت أنفاسها بعد معركة عنيفة دامية بينها وبين ذلك التيار المكتسح الجديد ، إلا وهو المسيحية » .

ثم يتحدث عن انتشار المسيحية في مصر فيقول : « خلال القرن الثاني الميلادى تأصلت المسيحية في الأسكندرية ، وبدأت تنتشر حثيثا في مختلف أنحاء مصر .. ثم أدى اعتناق الامبراطور قسطنطين للمسيحية حوالى عام ٣١٣ م إلى دفعة قوية للدين الجديد في كل أنحاء الامبراطورية الرومانية ومنها مصر ، فتحول إليه كثيرون من عباد الآلهة المصرية القديمة ، وهُجرت مئآت من المعابد المصرية في جميع أنحاء الوادى .

وفي عام ٣٨٠ م أصدر الامبراطور ثيودسيوس أمره الشهير بإيقاف العبادات الوثنية ، واعتماد المسيحية كدين رسمى وحيد للامبراطورية ، فكان هذا الأمر بمثابة إشارة إنطلاق لتدمير كل الديانات والثقافات القديمة ، سواء في مصر أو في غيرها من الأقاليم الرومانية ، وتحولت موجة الاضطهاد ضد الوثنيين الذين تمسكوا بعبادة آلهة آبائهم ، وارتفعت السنة اللهب والدخان تغطى سماء الأسكندرية ، موطن الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة . ودمر المسيحيون المتعصبون كل ماهو وثنى فيها : مراكزها العلمية ، ومتاحفها ، ومكتباتها التى كانت قد جددت بعد حريق المكتبة الكبرى فى عهد يوليوس قيصر وأصبحت تضم ثروة لاتعوض من دواوين الشعر اليونانى والتراث الأدبى والفلسفى والعلمى والتاريخى لكل حضارات العالم القديم . وقتل المسيحيون فى إحدى ثوراتهم « هيباثيا » الجميلة ، أستاذة الفلسفة بجامعة الأسكندرية .

وفى عهد القيصر فالين تحولت جامعة قيصرية بالأسكندرية إلى كنيسة مسيحية ، وتُحريت مكتبتها ، واحترقت محتوياتها ، وطورد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة . وفى عام ٣٩١ م حصل البطريك ثيوفيلوس من القيصر ثيودوسيوس على إذن بتخريب أكبر مزار فى العالم القديم ، وأكبر أكاديمية علمية فى مصر ، وهو « السيرايبون » ، وحرق مكتبته .

ولم تقف نقمة المسيحيين عند حدّ التخريب والحرق والتدمير ، بل تجاوزتها إلى أعمال الارهاب والاضطهاد والتعذيب للكهنة والعلماء الوثنيين ،

ففى القرن الخامس الميلادى نجد سيفريوس صديق البطريرك الانطاكى يعترف بأنه وصديقه الذى أصبح بطريركا لأنطاكية فيما بعد — وكانا منضمين إلى هيئة مسيحية بالأسكندرية — اقتربا فى أيام شبابهما كثيرا من الآثام والجرائم ضد العلماء الوثنيين ودور عبادتهم .

ثم ينقل الأستاذ العزب موسى عن العالم الطيب جيمسون هارى قوله : « اندفع المسيحيون بقيادة قسسهم ورهبانهم يدمرون كل رموز الوثنية القديمة . وخلال فترة وجيزة ضربت مئات المعابد فى مصر . ومُنِع الكهنة تحت التهديد بالموت من مزاوله طقوسهم المقدسة . وأُغْلِقَت بقية المعابد أو حُولت إلى كنائس وبيع . ويقال ان أربعين ألف صورة وتمثال للآلهة قد دمرت فى موجة واحدة من موجات النعمة على الوثنية فى ذلك العهد .

وبالرغم من كل ذلك ، استمرت بعض آثار العبادات المصرية القديمة قائمة فى أقاصى الصعيد ، وخاصة فى جزيرة فيلة على وجه التحديد التى أصبحت بمثابة المعقل الأخير لمن كتب لهم النجاة حتى ذلك الوقت من الآلهة المصرية القديمة وهم إيزيس ، وأوزوريس ، وصحور ، وختوم ، والمحتب .

ولكن ما إن انتصف القرن السادس الميلادى حتى بعث الامبراطور جوستنيان بقائده نارسيس إلى جزيرة فيلة للقضاء على آخر معاقل الوثنية فى مصر . فدمر معابد الجزيرة ، وحطم تماثيل آلهتها ، وأرسل كنوزها إلى القسطنطينية ، وألقى بكهنة معبد ايزيس العظيم — آخر حملة الثقافة القديمة — فى السجن حيث ماتوا جوعا وإهمالا (١) .

ويؤكد « هنريك ويليام فان لوم » تلك الواقعة حين يقول ان جزيرة فيلة كانت المكان الوحيد الذى بقيت فيه الكتابة المصورة المقدسة (الهيروغليفية) حيث كان هناك عدد قليل من الكهنة استمروا فى ممارسة تلك الكتابة التى تُسَيِّت فى كل مكان آخر من أرض مصر . ويوجه فان لوم اللعنات إلى الامبراطور جوستنيان لأنه قضى على مفتاح الكتابة الهيروغليفية (٢) .

(١) جيمسون هارى — المحوَّب ص ١٤٠ .

(٢) فان لوم — تحرير الجنس البشرى ص ١٧ .

ثم يقول الأستاذ محمد العزب موسى : « خلال هذا الصراع الدامى الرهيب بين المسيحية والوثنية فى مصر ، ازداد المصريون إنقطاعا من الناحية النفسية عن تاريخهم القديم . ولم يعد الأمر مجرد انهيار الحضارة الفرعونية بكل مايقطعه هذا الانهيار من وشائج نفسية ، بل أصبحت هذه الحضارة أيضا هرطقة ملعونة ينبغى التنكر لها والقضاء على كافة آثارها ، والتبرؤ من الانتماء إليها . وحتى اللغة المصرية القديمة التى ظل المصريون يتكلمونها فى ذلك العصر تعلموا أن يكتبوها بالحروف اليونانية . ونسوا تماما كيف يكتبونها أو يقرأونها بالطريقة الهيراطيقية أو الديموطيقية^(١) .

ويؤكد الدكتور حسين فوزى أن من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى لأنها فى الواقع (أى مصر) كانت قد نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ومن الخطأ أن نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسئول الأول عن هذا التخريب هم المصريون المسيحيون . وإذا كان هؤلاء قد احتفظوا بلغتهم القديمة ، فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة الهيروغليفية والديموطيقية حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم خمسة عشر قرنا إلى أن كشف شامبليون رموزها فى أوائل القرن التاسع عشر^(٢) .

مما سبق يتضح بجلاء أن المصريين المسيحيين قاموا طوال القرن الرابع الميلادى بهدم المعابد المصرية القديمة ، وقضوا على الديانة القديمة والحضارة الفرعونية التى قامت عليها . وإذا كان الفتح الإسلامى لم يقع إلا فى القرن السابع الميلادى فمن الخطأ اعتباره مسعولا عما حاق بالحضارة الفرعونية .



(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ٥٤ .

(٢) د. حسين فوزى — سندباد مصرى ص ١١٣ .

تعريب مصر

لم يكن دخول الإسلام مصر فى الفتح العربى هو السبب الوحيد فى تعريب أهلها ، وإلا فلماذا لم يتم تعريب بلاد فارس وقد دخلها الإسلام وبقي فيها كما بقى فى مصر . إن الأصول العربية والسامية التى ينحدر منها أقباط مصر ، والأصل الواحد للغتين المصرية القديمة والعربية — على نحو ماسبق أن بينا — كانا — إلى جانب الإسلام — من أسباب تحول أهل مصر من اللغة القبطية إلى اللغة العربية . تماما مثلما تعربت الشام والعراق حيث كان سكانهما من سلالات الأشوريين والسريان والآراميين ، وهم من الجنس السامى الذى انحدر منه العرب ، فضلا عن الأصل الواحد للغاتهم ولغة الفاتحين العرب .

ويضيف الأستاذ محمد العزب موسى إلى تلك الأسباب ما فى اللغة العربية من الثراء والجرس والدقة ، ويقول إنها كانت أكثر نضجا من كل اللغات القديمة المعاصرة لها ، وقد وصل بها القرآن إلى قمة التطور .. ، ثم ينقل عن كتاب الدكتور مراد كامل « حضارة مصر فى العصر القبطى » ما يلى : « إن اللغة القبطية ، وقت الفتح العربى ، كانت فى حالة بالغة من الضعف والتدهور ، فهى قد ابتعدت كثيرا عن اللغة المصرية القديمة وإن كانت تعتبر المرحلة الأخيرة المحتضرة لها . وهى من حيث الشكل صارت تكتب بحروف يونانية ، وخضعت لقواعد الحركة فى اللغة اليونانية بعد أن كانت اللغة المصرية القديمة (الديموطيقية) لاتعرف سوى الحروف الساكنة . ومن حيث المحتوى دخلها كثير من الألفاظ والتعبيرات الأجنبية خاصة من اليونانية والسريانية . وهجرت فى نفس الوقت كثيرا من الكلمات المصرية القديمة . ولم يكن ذلك دليل تطور وقوة ، وإنما كان ضعفا ، وخضوعا للغة اليونانية التى كانت فى ذلك الوقت لغة السيادة والثقافة العالمية ، كما أصبحت اللغة الرسمية فى مصر ، بها يكتب ويتحدث عليه

المصريين تاركين اللغة الوطنية للجهال والعوام^(١) .

ولا شك أن من أهم عوامل انتشار اللغة العربية في مصر حاجة الأقباط الذين دخلوا في الإسلام إلى الامام الصحيح بأصول دينهم الجديد ، وفهم القرآن بلغته .

ولقد لمست شخصيا عندما كنت أعمل في دولة غانا مدى تشوق الزنوج الذين دخلوا في الإسلام إلى تعلم اللغة العربية لنفس الغرض .

ويقول الدكتور أحمد مختار عمر : « كان نزول العرب الوافدين إلى الريف المصرى ، واختلاطهم بالمصريين في المعيشة والمعاملات والتزاوج ، من أسباب انتشار اللغة العربية أيضا . فقد صارت لغة تطارد الأذن المصرية في كل مكان ، وأصبحت مألوفة لعوام القبط بعد أن كانت لغة الدين والثقافة والدواوين فحسب . واضطرد انتشار اللغة العربية في مصر حتى أصبحت في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء ، وأصبح رجال الدين المسيحي يعظون بها كى يفهمهم سامعوهم^(٢) .



(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٢) د. أحمد مختار عمر — تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٥١ — ٥٥ .

تكوّن الشعب المصرى العربى الواحد

بدأت الهجرة العربية إلى مصر بعد ظهور الإسلام بالقوات العربية التى أنجزت الفتح بقيادة عمرو بن العاص والزبير بن العوام ، وبلغ عددها خلال ربع قرن (١٨ — ٤٣ هـ) بضع عشرات من الألوف نظمت لهم خطط (أحياء) فى مدينة الفسطاط . ثم استمر العرب يتوافدون على الفسطاط حتى بلغ عددهم فى عهد معاوية أربعين ألفا ، وكان عدد الحامية العربية بالأسكندرية ١٢ ألفا فى عام ٤٣ هـ زيدت إلى ٢٧ ألفا فى عهد معاوية . أما الصعيد فقد قصده عشرون ألفا تحت قيادة عبدالله بن أبى سرح فى بداية الفتح ، بالإضافة إلى جماعات عربية أخرى لم تكن من قوام الجيش العامل ولكنها نزلت مصر فى ظله (١) .

ثم تابعت الهجرات العربية إلى مصر ، وروى المقرئى أن ثلث قبيلة قضاعة هاجرت من الشام إلى مصر وتوطنت فيها ، وكان ذلك فى عهد عمر بن الخطاب . وذكر أيضا أن عامل الخراج على مصر عبدالله بن الحبحاب طلب من هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى أن ينقل عشائره من قبيلة قيس إلى مصر ، فأذن له بثلاثة آلاف منهم ، فألحقهم بواضى الخوف الشرقى (محافظة الشرقية) بمصر فانتشروا فيه (٢) .

ويقول المقرئى ان عامل الخراج هذا (ابن الحبحاب) لم يكتف بمن ذكر ، فكتب للخليفة هشام قائلاً : إن فى مصر كورا ليس فيها أحد ، ولا يضر أهلها نزول أناس معهم ، ولا ينقص ذلك شيئا من الخراج ، واستأذنه فى جلب عشائره قيسية أخرى من الأرومات العدنانية ، فأذن له ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نضر بن معاوية بن بكر بن هوازن ،

(١) د. عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئى ص ٩٥ .

(٢) د. عبد المجيد عابدين — المرجع السابق ص ٦٣ — ٦٤ .

ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ، ومائة أهل بيت من هوازن بن منصور بن عكرمة ، فأنزلهم « بلبس » ، وأمرهم بالزراعة ، وصرف إليهم العشور ، فاشترؤا إبلا ، كانوا يحملون الطعام إلى القلزم ويبيعونه فيصيب الرجل منهم في الشهر عشرة دنائير وأكثر ، ثم أمرهم بتربية الخيول ، فكان المهر لا يملك إلا شهرا حتى يُركب ، وليس عليهم مؤونة علف لإبلهم وخيولهم لجودة مراعيهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم في الجزيرة العربية والشام ، وفد عليهم خمسمائة أهل بيت من قيس ، فلما مات مروان كان عددهم ثلاثة آلاف أهل بيت ..

ويلفت نظرنا في أول هذه الرواية قول عامل للخارج للخليفة « ان في مصر كورا ليس فيها أحد ، ولا يضر أهلها نزول أناس معهم .. » ، فهذا يفيد أنه كان هناك حرص على ألا يضايق الوافدون العرب أهل مصر في أرزاقهم . كما يدل على أن كثيرا من أنحاء مصر كانت خالية أو شبه خالية من السكان ، فملأها العرب الوافدون ، وأنشأوا فيها قرى كثيرة جديدة في الوجهين القبلى والبحرى ، وعملوا في الزراعة وتربية المواشى والإبل ، ولم يكونوا عبئا على أهل مصر واقتصادها كما كان الشأن مع الغازين الفرس والروم وغيرهم الذين كانوا يترفعون عن الزراعة ، ويقطنون المدن حيث يمارسون سيادتهم على أهل البلاد ويبتزون أرزاقهم .

ولقد أخذت الاتصالات الأولى بين العرب الفاتحين وأهل مصر صورا شتى ، منها ما عرف بالارتباع ، إذ لم يكن الجند العرب يلتزمون الفسطاط طوال العام ، بل كان يؤذن لهم عندما يجيئ الربيع بالتحرك داخل البلاد للإصابة من خيراتها بالصيد وشرب اللبن وإطلاق خيولهم في المراعى لتسمن ، وكان القادة يوصون الجند بأن يحسنوا معاملة سكان البلاد أثناء الارتباع ، وأن يكفوا أيديهم عن أموالهم وأبدانهم وأعراضهم ، وكان موسم الارتباع يستمر حوالى ثلاثة أشهر حتى إذا دخل الصيف انسحب الجند إلى الفسطاط . وهكذا كان الارتباع فرصة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين ، وشيئا فشيئا بدأ الجنود وأهلهم يستقرون في أماكن ارتباعهم^(١) .

(٩) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٨٦ نقلا عن د. عبدالله خورشيد البرى .

ولم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين العرب والمصريين ، بل اقتضت ضرورات الأمن مرابطة جزء من القوات العربية في الثغور والسواحل بصفة دائمة ، وهو ما يعرف في الاصطلاح العربى العسكرى بالرباط ، وكان ربع القوات العربية يرباط في الأسكندرية وحدها ، وربع آخر يرباط في سائر السواحل المصرية ، والنصف يستبقى في القسطنطينية ، ولم تكن القوات المرابطة في الثغور تقيم في معسكرات خاصة كالقسطنطينية ، بل تقيم بين الأهالى ، وهكذا كان الرباط وسيلة أخرى لتحقيق الاختلاط .

وبمقتضى اتفاقيات الصلح ، كان للعرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد إذا نزلوا قراهم ، ويستمر هذا الحق ثلاثة أيام ، ولذلك أقيمت في القرى المصرية مباني أو قاعات خاصة للضيافة تسمى بالليوان أو الأيوان ، ولا يزال بعضها قائما في القرى حتى اليوم بالقرب من الكنائس . وفي هذه المباني كان ينزل موظفو الدولة وجنودها والمهاجرون العرب ، وتتحمل القرية بأكملها نفقات ضيافتهم ، وهكذا كانت الضيافة شكلا آخر من أشكال الاتصال بين العرب الفاتحين وأهل مصر^(١) .

فإذا أضفنا إلى هذا وفود بعض القبائل والعشائر العربية من الشام والجزيرة العربية — على نحو ما قدمنا — وانتشارها في شرق الدلتا ، ثم فيها كلها ، فضلا عن الصعيد ، واشتغالها بالزراعة ، واتصالها الوثيق بالفلاحين المصريين في القرى المجاورة ، وماتبع ذلك الانتشار من اختلاط ومعاملات وزيجات ، نكون قد بلغنا طور قيام مجتمع جديد — مصرى عربى إسلامى — جرى فيه الامتزاج بين العرب والمصريين اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، وذاب العرب القادمون في محيط الشعب المصرى ، وأصبحوا ينتسبون إلى البلد الذى يسكنونه ، أو الحرفة التى يحترفونها ، وبمرور الأيام نسى الأحفاد قبائلهم الأصلية في شبه الجزيرة العربية التى انحدر أسلافهم منها ، وهذا ما عناه المقرئ فى مقدمة رسالته « البيان والأعراب » بقوله : « اعلم أن الغرب الذين شهدوا فتح مصر أبادهم الدهر (بالموت) ، وجُهلّت أحوال أكثر أعقابهم » .

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٨٧ نقلا عن د. عبدالله خورشيد البرى .

ويعصف الدكتور جمال حمدان امتزاج العرب الوافدين بأهل مصر فيقول :
« من المسلم به أن الهجرة العربية بدأت بأعداد محدودة ، ولكنها سرعان
ما تحولت إلى هجرة واسعة النطاق مختلطة النوع ، وقد أخذت في البداية شكل
شبه استقرار على أطراف الصحراء وحواف المدن ، خاصة الحواف الشرق
(أى شرق الدلتا) ، وشبه معسكرات في المدن ، ولكنها لم تلبث أن استقرت
في بطن الحوف ، أى داخل الأراضي الزراعية والريف ، وانتشرت في المدن ،
وهكذا تم الاختلاط ، لا في بؤرات المدن وحدها كما في حالة اليونان والرومان
من قبل ، وإنما في تضاعيف الريف ، ولهذا كتب للتعريب أن يكون تحولا
خالدا لا ظاهرة عابرة كالهليلينية^(١) .

ولقد حاول بعض الباحثين تقدير حجم الهجرة العربية بعد الفتح ،
فقدرها البروفسور فلندرز بترى بحوالى ١٥٠ ألفا فقط ، بينما يذهب نعوم شقير
في كتابه « تاريخ سيناء » إلى أن ثلثي المسلمين الذين أحصاهم التعداد الرسمي
في مصر عام ١٩٠٧ وعددهم أحد عشر مليونا وربع المليون تقريبا يرجعون
إلى أصل قبضى ، والثلث الباقي من أصل عربى وتركى واعجمى .

أما عبدالله خورشيد البرى فقد أحصى القبائل والبطون العربية التى وفدت
على مصر واستوطنتها خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح العربى فوجد
مجموعها ٢٤٤ قبيلة أو بطنا . ويضيف الأستاذ محمد العزب موسى : « إذا
افترضنا أن كلا من تلك القبائل أو البطون كانت تضم في المتوسط ثلاثة آلاف
شخص ، يكون معنى ذلك أن عدد العرب الوافدين يبلغ في مجموعه ٧٣٢
ألفا أى حوالى ١/٢ عدد المصريين الأصلاء ، إذا افترضنا أن عدد سكان
مصر في تلك الفترة كان في حدود خمسة ملايين نسمة^(٢) .

وعلى أية حال ، فقد كان عدد العرب الوافدين بعد الفتح كافيا — بعد
امتزاجهم بأهل مصر — لأن يدفع فيهم دماء جديدة ، ساعدت على انعاش

(١) د. جمال حمدان — شخصية مصر — كتاب الهلال ص ٣٠ .

(٢) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٨٩ .

العنصر الحضارى فيهم وبقائه . ولا شك أن جمهرة العرب المسلمين الوافدين كانوا أحفظ لدينهم وتعاليمه من كثير من ولائهم الذين أفسدتهم السلطة ، وحب الدنيا ، فساعد ذلك المصريين على تقبلهم بينهم ، وفتحوا لهم صدورهم ، وسمحوا لهم بالنفاذ إلى صميم النسيج المصرى .

وهكذا استطاعت مصر تمصير تلك القبائل العربية وتهذيبها وامتصاصها ، وتحويلها من الرعى إلى الزراعة ، ومن التجول إلى الاستقرار . وفى المقابل تشربت منهم دينا سمحا عادلا لا يختلف فى جوهره وسَمْتِه عن دينها ، فكلاهما خرج من مشكاة واحدة .



الفصل الرابع

مصر العربية في عصرها الحديث

مصر العربية فى عصرها الحديث

استطاعت مصر خلال القرون القليلة التى أعقبت الفتح الإسلامى أن تصهر العرب الوافدين وأقباط مصر — سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه — فى بوتقة واحدة . وتكوّن من الجميع نسيج متين هو الشعب المصرى . وقد بلغت متانة هذا الاندماج الاجتماعى حدا جعل الأجانب الذين وفدوا على مصر بهدف دراسة أحوال شعبها ، لا يستطيعون معه تمييز القبطى من المسلم .

ولعل مما ساعد على هذا التلاحم وحدة الآلام التى عاناها الأقباط والمسلمون على السواء من ظلم الأجانب ، وعلى الأخص فى عهود المماليك والأتراك العثمانيين . وفى هذا يقول جون بورنج المبعوث الانجليزى فى تقرير رفعه إلى بلمرستون وزير خارجية بريطانيا فى عام ١٨٣٧ م : أنه « لمس تعاطفا بين القبط وأبناء العرب ، لعله نتيجة مايقاسونه جميعا من آلام .. ، ولا يكاد يوجد بين أقباط مصر والنازحين من الأوروبيين أى اختلاط . ولا يُعرف عن عاداتهم (أى الأقباط) المنزلية إلا القليل ، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين ، فالحجاب مضروب على نسائهم كما هو مضروب على نساء المسلمين ، وفى الريف لاتكاد تفترق عادات الأقباط عن عادات أبناء العرب .. ، وهم كالمسلمين يؤمنون بالخرافات الشائعة فى البلاد ، سواء كانت تلك الخرافات راجعة إلى أصل إسلامى أم أصل مسيحى^(١) .

وينقل الأستاذ طارق البشرى عن كلوت بك فى حديثه عن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين قوله : « إذا كان المسلمون بأوروبا (الغزاة الأتراك) قد اشتهروا بكراهة المسيحيين ، فلعل ذلك يرجع إلى سلوك الغالب مع المغلوب ،

(١) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون — بناء دولة مصر محمد على ص ٣٨٧ — ٣٨٩ .

دون أن تقع مسئولية في هذا على مبادئ الدين الإسلامى .. ، ولا يسعنا إلاّ الجهر بأن العرب الصميمين أكثر تسامحا نحو الذميين من الشعوب الإسلامية الأخرى ، وإن المصريين يفوقونهم جميعا في التسامح لما جُلبوا عليه من الرقة ودمائة الخلق (١) .

كما ينقل عن تقرير بورنج الذى سلفت الإشارة إليه قوله : « إن التسامح في مصر قد خطا خطوات فسيحة في السنوات الأخيرة (قبل عام ١٨٣٧) ، وأن الفوارق بين المسلمين والمسيحيين آخذة في الاختفاء ، وأن المسيحيين يُرقّون إلى أرفع مناصب الدولة ، ولا يوجد من يتعرض لأقل مضايقة بسبب عقيدته الدينية .. ، وإذا ظلت الأمور تجري على هذا النسق ، فستنقطع هجرة الترك بعد سنوات قليلة إنقطاعا يكاد يكون تاما ، وتؤول مقاليد السلطة إلى الوطنيين وحدهم ، مسلمين كانوا أو مسيحيين » .

ولقد تم الاندماج الكامل بين عنصرى الأمة المصرية ، الأقباط والمسلمين ، واعتراف الدولة ممثلة في حاكمها — الوالى محمد سعيد — بتساوى الأقباط والمسلمين في الحقوق والواجبات الوطنية مساواة تامة بالقرار الذى أصدره بتجنيد النصارى في الجيش ، وتطبيق قانون الخدمة العسكرية عليهم . كما ألغى آخر علامات التفرقة الدينية بإلغاء الجزية التى كانت مفروضة على الذميين — تم كل ذلك في عام ١٨٥٥ م (٢) .

ويجب أن نلاحظ أن هذا التطور الكبير بإعطاء الأقباط تلك الحقوق قد تم قبل الاحتلال الانجليزى لمصر بسبعة وعشرين عاما ، وأنه كان نتيجة طبيعية للاندماج الكامل بين أقباط مصر ومسلميها ، ولثقة التى ترسخت بينهما ، ولولا ذلك لما كان سهلا على الوالى الخاضع للخليفة العثمانى أن يتخذ تلك القرارات .

وكان من أهم القرارات التى صدرت في هذا السياق — على عهد الخديوى اسماعيل — تعيين قضاة من الأقباط في المحاكم ، وكان ذلك أيضا قبل

(١) طارق البشرى — المسلمون والأقباط ص ٢٩ .

(٢) جاك تاجر — أقباط ومسلمون ص ٢٣٢ — ٢٣٨ .

دخول الانجليز مصر . ويذكر قليني فهمى أن أول قبطى عين قاضيا كان عبد الملاك بك كتكوت الذى عُيِّنَ بمحكمة قنا ، وإن جدّ قليني فهمى وهو يوسف بك عبد الشهيد عين مديرا لديوان القضايا فى المنيا^(١) .

وعندما أنشئ أول مجلس نيابى فى مصر فى عهد الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٦ نصّ قانون إنشاء المجلس على أن كل شخص يبلغ من العمر ٢٥ عاما يكون من حقه الترشيح لعضوية المجلس بشرط أن يكون أمينا مخلصا ، وأن تتأكد الحكومة من أنه وُلد فى البلاد . وبهذا توالى التأكيدات على مبدأ المساواة بين المصريين دون تمييز لديانة على أخرى .

وبهذا دخل المجلس النيابى الأول جرجس برسوم عمدة بنى سلامة عن بنى سويف والفيوم ، وميخائيل أثناسيوس عن أشروبة من المنيا وبنى مزار . وكان مجموع أعضاء المجلس ٧٥ عضوا . وفى تشكيل المجلس عام ١٨٧٠ دخله المعلم فرج ابراهيم عمدة ديرمواس عن أسيوط ، وحنّا يوسف عمدة نزلة الفلاحين عن المنيا وبنى مزار . وتكرر انتخاب هذين العضوين فى تشكيل ١٨٧٦ فضلا عن عبد الشهيد بطرس من البلينا عن جرجا^(٢) .

وفى مجال التعليم كان هناك نفس الاتجاه حيث أجمع مجلس الشورى على وجوب أن تقبل المدارس الأميرية المصريين من المسلمين والنصارى على السواء ، وفى عهد اسماعيل أرسلت الدولة ضمن بعثاتها التعليمية إلى أوروبا الأقباط مع المسلمين ، فكان منهم جرجس قلندس القاضى ، ومسيحة لبيب ، ونسيم وصفى ، وفرج نصحى ، وميخائيل كحيل ، وقسطندى فهمى ، وغيرهم^(٣) .

ويعرض المستشار طارق البشرى صفحة ناصعة من صفحات آباء الكنيسة القبطية العظام حيث يروى نشاط البطريك كيرلس الرابع الملقب بأبى الاصلاح ، ففضلا عن المدارس التى أنشأها لتعليم أبناء الأقباط منذ أن رسم مطرانا فى عام ١٨٥٣ لمواجهة نشاط المدارس التبشيرية الأجنبية ، أنشأ مدارس

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٣) د. أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى مصر ص ٦٩٨ — ٧٢٢ .

قومية للمحافظة على كيان مصر الواحد ، ومسايرة ركب الحضارة . وكانت مدارس تعلم اللغات الحية والعلوم النظرية والعملية ، وفتح أبوابها « لبنى مصر أجمعين دون تفريق بسبب عقيدة أو دين أو مذهب » ، ثم سعى لدى الحكومة كى تشرف على امتحاناتها وبرامجها ، وتخرج منها فيما بعد كثيرون من قادة الإدارة والرأى العام مثل بطرس غالى وقلينى فهمى وكامل عوض سعد الله وغيرهم من الأقباط ، ودرس فيها أيضا عبد الخالق ثروت وحسين رشدى ممن تولوا رئاسة الوزارة ، ومحمود عبد الرازق الذى أصبح وكيلا لوزارة الداخلية ، وغيرهم من كبار رجال القضاء والمال والإدارة .

وإذا كان موقف آباء الكنيسة القبطية نبلا تجاه إخوانهم فى الوطن ، فقد كان كذلك موقف شيوخ الأزهر تجاه الأقباط . وينقل الأستاذ طارق البشرى عن كتاب « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لمؤلفه ميخائيل شاروبيم قوله إن الوالى عباس الأول كان شديد النقمة على النصارى ، وأراد أن يدبر إخراجهم من وطنهم وإبعادهم إلى السودان ، ولزم لذلك أن يستصدر من الأزهر فتوى بجواز ذلك . ولكن الشيخ الباجورى شيخ الأزهر آنذاك رفض ذلك رفضا قاطعا وقال : « إن النصارى من أهل البلاد وأصحابها ، ومن ناحية الدين فهم فى ذمة الإسلام إلى اليوم الآخر ، ولا يجوز الحاق أدنى أذى بهم » . وبذلك خاب تدبير الوالى . ولا شك أن موقف عباس هذا كان شخصا بحتا ، ولم يتكرر قط من أحد من خلفائه .

ومثلما كان الوالى محمد على الكبير وخلفاؤه يُنعمون على شاغلى الوظائف الكبرى من المسلمين باقطاعات زراعية ، كانوا يفعلون الشيء نفسه مع اقرانهم الأقباط ، فقد منح محمد على باسيلوس غالى وأخويه طويابك ودوس بك ٢٢٠٠ فدان فى المنيا وبنى مزار فى عام ١٨٣٥ . وتوالى عليهم الانعامات حتى كان دوس فى عهد اسماعيل يمتلك ١٠٦٥ فدانا بالقليوبية والمنيا وأسيوط ، كما كان يمتلك ورثة طويابا ١٥٣٠ فدانا ، وورثة باسيلوس ٩٥٠ فدانا . وشنودة ناشد الذى كان يعمل كبيرا لكتاب ابراهيم باشا منح ٥٠٠ فدان بالمنيا ، وصار فى عهد اسماعيل يمتلك ٩٠٠ فدان ... إلخ (١) .

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٣٩ .

ورغم الجهود التي بذلها لورد كرومر في محاولة التفريق بين أقباط مصر ومسلميها وإثارة الفتنة بينهم كخطط استراتيجي استعماري ، فإنه اضطرت للاعتراف بالامتزاج الكامل بين عنصرى الأمة حيث يقول ان تجربته الخاصة تقوده إلى عدة نتائج ، منها أن القبطى المصرى اكتسب خصائص أخلاقية يتصف بها المسلم المصرى ، وأن هذا الاكتساب يرجع إلى ظروف لاتتعلق بالاختلاف فى العقائد .. والخلاف الوحيد بين القبطى والمسلم أن الأول مصرى يتعبد فى كنيسة مسيحية بينما الآخر مصرى يتعبد فى مسجد محمدى (١) .

ولإزاء ضيق كرومر من عدم استجابة أقباط مصر لتوجهاته الاستعمارية ، هاجمهم هجوما شديدا إلى حد انكار مسيحيتهم ، ومما قاله « إن القبطى رغم عقيدته أصبح معتقلا فى ذات الأغلال التى قيدت المسلم ، وإن القبطى من الرأس إلى القدم لا يعدو أن يكون مسلما فى عاداته ولغته وروحه » .

ويتحدث جورج يونج فى كتابه « مصر » عن أحوالها فى الفترة التى سبقت الاحتلال البريطانى وحتى ثورة ١٩١٩ فىقول : لاتوجد فى مصر تفرقة طائفية ضد الأقباط كتلك التفرقة التى تعاني منها الأقليات الضعيفة فى أوروبا .. ، والكتاتيب مفتوحة للأقباط الذين يمكنهم أن يتلقوا فيها تعليم دينهم ، وفى الأقاليم التى تزيد فيها نسبة السكان من الأقباط تقدم الحكومة للمدارس القبطية إعانات لها أثرها . وعندما لايمكن الأقباط من الوصول إلى المجالس النيابية المحلية كمجالس المديرىات يُعين فيها عدد منهم . ومنذ قرن لم يحدث اضطهاد لهم ، وإنهم عانوا ضيما من أهل ديارتهم المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك أكثر مما عانوا من أهل وطنهم المسلمين .

ويقول يونج : إنه من المثير للفضول أن يُلاحظ أن العلاقة بين العنصرين تظهر أوثق ماتكون فى المناسبات الدينية ، إذ يبنى الأقباط مساجد المسلمين ، كما يعيد المسلمون بناء الكنائس القبطية ، ويذهب المسلمون والأقباط إلى زيارة الأضرحة ذاتها للأولياء والقديسين المحليين . ويتناقلون الأقاويص ذاتها ،

(١) كرومر — مصر الحديثة — المجلد الثانى ص ٥٦٨ — ٥٦٩ .

ويهزجون بالأغاني ذاتها ، ولهم الفضائل ذاتها ، والصفات ذاتها ، ووجهات النظر ذاتها عن الحياة . لذلك لم يكن الاخاء القبطى الإسلامى فى عام ١٩١٩ جديدا ولا طارئا^(١) .

وتذكر صحيفة « الوطن » القبطية فى عدد ٥ مايو ١٩١٦ أنه كان للأقباط قديما رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية ، وان ممن درسوا بالأزهر قديما أولاد العسال ، وهم من كبار مثقفى القبط ولهم مؤلفات هامة . وممن درسوا فيه حديثا ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن ، إذ درس فى الأزهر ثم انتقل إلى دار العلوم ، ووهبى تادرس الشاعر الذى كان يحفظ القرآن الكريم ويكثر من الاقتباس منه ، وفرنسيس العتر الذى كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده عام ١٩٠٢ .

وجدير بالذكر أن المدارس الحكومية لم تكن تعرف تعليم الديانة المسيحية للتلاميذ الأقباط أيام كان مستر دانلوب أو يعقوب ارتين مشرفين على التعليم المصرى . وقد طلب الأقباط من كل منهما تعليم المسيحية لأبنائهم فى المدارس أسوة بتعليم الإسلام للتلاميذ المسلمين ، فلم يستجيبا لهذا المطلب . فلما تولى سعد زغلول نظارة المعارف فى عام ١٩٠٧ قرّر إدخال هذه المادة بمنهج المدارس الابتدائية الحكومية قائلا : « نريد أن يكون الأقباط ، وهم شركاؤنا فى البلاد ، عالمين بمبادئ عقيدتهم ، متمسكين بقواعد دينهم ، فالذى لا دين له ، لا أمان ولا وفاء له »^(٢) .

وبهذا أظهر سعد زغلول — زعيم مصر فيما بعد ، وقطب الرحى فى أروع وحدة وطنية شهدها العالم الحديث — جرأة تليق بزعيم ، واستنارة دينية ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان تلميذا نجيبا لرائدى حركة الاصلاح الدينى والتنوير فى مصر الحديثة — الأفغانى ومحمد عبده .

وفى مقالة للأستاذ « كامبفماير » عن جمعية « الشبان المسلمون » التى تأسست فى مصر عام ١٩٢٧ وكانت تمثل مرحلة انتقالية بين النمط السابق

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٤٢ .

(٢) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٢٥٨ .

من الجمعيات الدينية ذات النشاط المقصور على الميادين الثقافية والخيرية ، وبين الجمعيات الدينية ذات النشاط السياسى السافر — يقول « إن نقطة الانطلاق لدى مؤسسى الجمعية هى خدمة أوطانهم وخدمة الشرق » (إذ أنشئت للجمعية فروع فى عدة أقطار عربية أخرى) . ثم يتساءل من وجهة نظر الأوروبيين عما إذا كان الاسلام عدوا لهم أو حليفا ، ويحيب بما لاحظته من أن العالم العربى لا ينطوى على عداء للأوروبيين ولا للمسيحيين إذ يحيا المسلمون والمسيحيون فى الشرق معا ، إنما مايبحث على الكراهية فى هذه المنطقة فى نظره هما أمران : الاستعمار والتبشير ، والمسلمون يكرهون التبشير ولا يكرهون المبشرين — وينتهى إلى أن نشاط المبشرين فى البلاد الاسلامية نشاط عقيم لن يحقق هدفه ، وهو نشاط ضار لكونه يثير كراهية المسلمين .



فكرة الوطنية والإسلام

ربما كان رفاة الطهطاوى أول مفكر يتحدث بافاضة عن « الوطنية » المصرية بالمفهوم الحديث للقومية ، فيستعيد أمجاد مصر الخالدة فى عصر الفراعنة ، ويدعو إلى الاعتزاز بها . ولقد اعتبره بعض الإسلاميين المعاصرين — وهم ظالمون له فى رأى — انه كان بذلك يعمل على مقاومة التوجه الإسلامى فى الحكم والسياسة ، ويحارب فكرة الجامعة الإسلامية التى نادى بها الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي (فى سوريا) ، وغيرهم . وغدّى هذا الظن — فى رفاة — انبهاره المعلن بالحضارة الغربية التى عايشها فترة من الزمن فى باريس . فاعتبر بعض الإسلاميين أن الشيخ الأزهرى قد فُتن بحضارة الغرب وفكرها القومى ، ونسى عالمية الإسلام ، وأخذ يدعو إلى القومية « الضيقة » ... إلخ .

ولكننا حين نقرأ فكر الرجل فى كتابه « مناهج الأبواب » ، نجده يدعم فكرته عن الوطنية أو القومية بأدلة ناصعة من القرآن والحديث وآثار الصحابة ، مما ينفى عنه أية شبهة فى مناوأة الإسلام ودفعه عن الساحة ، وإحلال القومية المصرية محله . بل هو يوفق بين الجانبين توفيقاً هيناً لنا ، ولا يحاول التلفيق بغية التوفيق ، إذ الوفاق هنا قائم فعلاً فى الأفهام السليمة ، والطبائع المنصفة .

ولنمعن النظر فى قول الطهطاوى : « إن حضارة مصر وتمدّنها على جانبين ، التمدّن بصنائع العمران ، والتمدّن فى الأخلاق والفوائد والآداب ، أى التمدّن فى الدين والشرعية . والدين — كما يقول الطهطاوى — « أقوى قاعدة لصلاح الدنيا واستقامتها لأنه زمام الانسان » . ويقول : « إن الدين هو ملاك العدل والاحسان ، وذلك جوهر فكرة المساواة ، كما لأنه أساس

الأخوة ، سواء الأخوة الدينية أو الأخوة الوطنية .. ، ومن ذا الذى يجترى أن يعاند مولاه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » ، وحسبنا فى هذا المعنى قول الكرار (يقصد عليا بن أبى طالب) : أما وقد اتسع نطاق الإسلام ، فكل امرئ وما يختار «^(١) .

وبعد أن يوضح الطهطاوى أن الإسلام لا يمنع قط قيام ديانات أخرى إلى جواره ، ينتقل إلى الحديث عن محبة الوطن فيقول : « إن إرادة التمدن لاتنشأ إلاّ عن حب الوطن ، وحب الوطن من الإيمان » ، ويروى عن عمر بن الخطاب قوله « عمّر الله البلاد بحب الأوطان » ، وعن عليّ بن أبى طالب قوله : « سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده » . ويقول : حين خرج النبى من مكة علا مطيته واستقبل الكعبة وقال : « والله لأعلم أنك أحب بلاد الله إلّى » . ثم يروى عن عبد الله بن عمر : « أن أهل مصر (يعنى الأقباط) أكرم الأعاجم كلها ، وأسمّحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة » ، وهو بهذا يشير إلى هاجر أم اسماعيل عليه السلام ، فقد كانت من قرية « أم دينار » أو « أم دين » وكلاهما بمصر ، وإلى مارية أم ابراهيم فإنها من قرية بإقليم الجيزة ، كما ينقل الطهطاوى عن عمر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لهم منكم صبها وذمة »^(٢) .

ورغم أن الشيخ محمد عبده كان مع أستاذه الأفغانى من رواد فكرة الجامعة الإسلامية ، فإنه لم ير تعارضا بين « الوطنية » والإسلام . ويحكى عنه تلميذه الشيخ رشيد رضا أنه كان يرى الوطنية فى تعاون أهل الوطن الواحد ، المختلفى الأديان ، فى كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته ، وبرز موقف الإمام من الأقباط حينما اتهمت إحدى الصحف المصرية بطرس غالى وكيل وزارة الحقانية بمحاباة الأقباط ، فردت عليها صحيفة أخرى بما خشى منه الإمام أن يكون إثارة لفتنة ، فكتب يهاجم تلك « المشكلة المصطنعة » قائلا « إن التحامل على شخص معين (يقصد بطرس غالى) لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى

(١) رفاعة رافع الطهطاوى — مناهج الأبواب المصرية فى مناهج الآداب المصرية ص ٧ و ٩ .

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى — المرجع السابق ص ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ٦٤ .

طائفة أو أمة أو ملة » ثم ذكر أن طائفة الأقباط « أظهرت بحسن سيرتها مع المسلمين من مواطنيها مآهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي ﷺ » ثم استطراد في الثناء على خلق الأقباط وأمانتهم « التي برزت في توليهم شئون المال بالحكومة المصرية في مختلف العهود »^(١) .



(١) محمد رشيد رضا — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول ص ٩١٨ ، والجزء الثاني ص ٣٦١ .

الأزمة الطائفية (١٩٠٨ - ١٩١١ م)

ظل الؤثام التام ساريا بين عنصري الأمة المصرية حتى عام ١٩٠٨ حين اشتعلت مجادلات سياسية عنيفة خاصة بين بعض الصحف المسيحية والإسلامية ، واستمر هذا الجدل محتوما حتى عام ١٩١١ . ولا شك أن هذا كان نتيجة الجهود الانجليزية المكثفة لتفريق صف الأمة . ويلاحظ المستشار طارق البشري أن المتجادلين كليهما كانا — برغم خلافهما — يصدران عن أرضية فكرية واحدة ، تاريخا وتكوينا نفسيا .. فمن هاجم المسلمين لسوء معاملتهم للقبط ، وأوغل في اللدد ، كان يقارن بين هذا الحاضر التعيس ، وبين الماضي المجيد أيام الفاطميين وغيرهم من دول التاريخ الوسيط ، وينقل الصور والمآثر عن هذا الماضي المشترك بين المصريين جميعا ، الداخلى فى تراثهم الواحد .

ويقول المستشار طارق البشري : « وتتضح هذه الأرضية المشتركة فى أنه لم يتماد من القبط إلى الدعوة إلى قومية قبطية إلاّ النزر اليسير منهم ، ولم يستجب لهؤلاء عدد له أدنى أثر .. كتب رمزى تادرس فى كتابه « الأقباط فى القرن العشرين » يقول « إن الاخاء طبيعة فى الأمة ، والوحدة فطرة فيها ، فقد ثبت أيضا أنها (أى الأمة المصرية) من دم واحد وجنسية واحدة وصورة واحدة يصعب معها على الأجنبى والمتمصر أن يميز بين القبطى المسلم والقبطى المسيحى » . ثم ينقل عن « ماسير »^(١) قوله أن القطر المصرى ينقسم دينا إلى قسمين عظيمين أحدهما من الأقباط ، والثانى من المسلمين ، وأن الأقباط هم سكان البلاد الأقدمون ، أما المسلمون فهم

(١) ماسير جاستن ١٨٤٦ — ١٩١٦ م متخصص فى المصريات وعمل مديراً لمصلحة الآثار المصرية أكثر من مرة .

أيضا اعتنقوا الإسلام ، فكلهم إذن مصريون ، وذكر أنه لا يوجد مصريان واحدة مسلمة ، وأخرى قبطية ، بل توجد مصر واحدة ، لأن مسألة مسلم وقبطي مسألة دينية ، وفي فرنسا وطنيون من أديان مختلفة^(١) .

ويرى الأستاذ طارق البشرى أن الفكر السياسى القبطى الذى ظهر خلال تلك الأزمة الطائفية كان انفعالا معاديا لفكرة الجامعة الإسلامية ولدعاتها . ولكننا نرجح تفسيراً آخر ، هو أن ذلك الفكر إنما كان يعادى أساسا استمرار السيادة العثمانية على مصر ، لما صاحبها من استبداد ومظالم ، وقصور الحركة الوطنية التى كانت بازغة فى تلك الأيام عن المطالبة بالتخلص من السيادة العثمانية ، واقتصارها على المطالبة بطرد الانجليز . يقول الأستاذ رمزى تادرس فى كتابه عن هذه المسألة : « إذا طلبوا الاستقلال كان فقط لجلاء المحتلين المسيحيين وبقاء سيادة العثمانيين المسلمين ، ولو فى بقائها منافية لمعنى الاستقلال الصحيح^(٢) .

إلا أن الجدل العنيف لم يكن صادرا فقط عن نفر من الأقباط ذوى النوايا الحسنة ، وإنما دخلت فيه وأشعلت ناره جهات أخرى استطاع الاحتلال الانجليزى تجنيدها لإثارة الفتنة ، وكان أهمها صحيفتى « مصر » ، و « الوطن » اللتين كثفتا هجومهما على الحزب الوطنى ، والزعيم محمد فريد ، وطالبتا بنفيه هو والشيخ عبد العزيز جاويش من مصر .

وعندما زار تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة حينذاك مصر عام ١٩١٠ ألقى محاضرة أشار فيها إلى مقتل بطرس غالى رئيس الوزراء محاولا إثارة النعرة الطائفية ، ثم تطرق فى محاضرته إلى الحديث عن الأمم التى تطالب بالدستور وهى لاتزال فى دور التكوين ، وقال : « إن مثل هذه الأمم تكون خطرا على نفسها لأنها لم تُنمَّ فيها الصفات التى تمكنها من الانتفاع بالدستور ، وإن الأمر الجوهري ليس هو الإسراع للحصول على سلطة ليس أسهل من سوء استعمالها ، وإنما هو ترقية الصفات التى يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة وان تكن بطيئة^(٣) .

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) رمزى تادرس — الأقباط فى القرن العشرين — الجزء الثانى ص ٧ .

(٣) أحمد شفيق — مذكراتى فى نصف قرن — الجزء الثانى ص ٢١٢ .

وتلقت صحيفة « مصر » القبطية بالترحاب خطاب روزفلت الذى أهان فيه مصر ، ووصفها بأنها دولة فى دور التكوين ، وتناسى تاريخها العريق ، واستكثر عليها أن يكون لها دستور . لقد وصفت صحيفة « مصر » خطاب روزفلت بقولها « لم يُدوِّ فى جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذى ألقاه جناب المستر روزفلت .. ولا أصرح منه عبارة ، ولا أنفع لها فى الحال والاستقبال ، وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام^(١) .

ولم تكتف صحيفة « مصر » بهذا ، بل خلعت تماما برقع الحياء ، وطالبت الأقباط بالثورة على الضيم الذى يلحق بهم ، وقالت « وإن لم تنجحوا فعليكم بالدول الأوروبية ناصرة الانسانية وأولهم الدولة الانجليزية !

وتجسست العمالة فى شخص اخنوخ فانوس زعيم الطائفة الانجيلية الذى تلقى تعليمه فى المدرسة الانجيلية بأسىوط ، وأكملة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت . لقد عمل اخنوخ فى تلك الفترة على تكوين حزب سياسى أسماه « الحزب المصرى » — وكان هدفه — كما صرح — الحصول على استقلال مصر عن طريق الصداقة المصرية الانجليزية . وكان يرى إشراك الأجانب المقيمين فى مصر فى البرلمان الذى يتكون غداة الاستقلال .

وأمام هذا التجاوز ، ثارت نائرة بعض الكتاب المسلمين ، أبرزهم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى تبرأ الحزب الوطنى من كتاباته التى تجاوزت حد الاعتدال . ويصف الأستاذ طارق البشرى تلك الفترة من الأزمة قائلا « لقد غلبت كفة العقلاء من الفريقين ، فكانوا يهاجمون أى تمادٍ فى الشقاق ويحذرون منه .. وكان ضغط رأى العام المصرى على كلا الجانبين يفرغ مايراد اصطناعه من أزمات بينهم .. وباستثناء بعض الكتابات التى تمادت فى تزكية الخلاف كان الطابع العام فى الجدل هو طابع العتاب والمجاملة .. ولم يعرف من أحد طعن فى الدين ذاته أو تعرض له بما يمس التوقير اللازم له » .

وأنصح دليل على رفض جموع الأقباط للعمالة هو ماجاء من المواطن « سالم سيدهم تادرس » حين كتب فى جريدة « التايمز المصرى » فى سبتمبر

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٥٧ .

١٩٠٨ يتهم اخنوخ فانوس بالخيانة ويخاطبه قائلاً : « لقد أصبحت الشخص الذى إذا مرّ فى الطريق قلنا : هذا أحد صنائع الانجليز فى مصر ، والآلة التى تحرّكها جريدة المقطم . اتق الله أيها المجتهد فى الباطل » . ثم يقول « إن انجلترا تستخدم الخونة الذين لاضمير لهم لقتل الروح الوطنية ، والهجوم على أقوى حزب مصرى قام إلى الآن وهو الحزب الوطنى » ، كما كان ويصا واصف ، ومرقص حنا من كبار اعلام الأقباط الذين وقفوا بإصرار ضد ذلك الشقاق .

وقد دعا لطفى السيد إلى احتفال بعيد الهجرة النبوية فى يناير عام ١٩١٠ فى ذروة الجدل المحتدم بين عناصر من طرفى الأمة ، وحضر الاحتفال مرقص حنا ، ووقف خطيباً ليقول : « إن السنة الهجرية سنة المصريين جميعاً ، تحتفل بها الشبيبة الإسلامية والشبيبة المسيحية ، لأنه احتفال لدين شريف ، مبدؤه أن محبة الوطن من الايمان .. وعلى هذا المبدأ أقول أننى مسلم ومسلم .. مهما قيل ويقال عن تقاطعنا وتدابرننا فنحن إخوان فى الوطنية .. إذا حدث خلاف بين مصريين ومصريين فلا يعد ذلك دليلاً على عدم وجود انحاء ، وإنما هو من مستلزمات الحياة » ، وقد أغاظ هذا الكلام صحيفة « الوطن » فشنت على مرقص هجوماً حاداً وأسمته « يهوذا الأسخريوطى » (١) .

وفى عام ذروة الشقاق هذا (١٩١٠) نبتت بين بعض الأقباط فكرة الدعوة إلى مؤتمر قبلى لتدارس مايشكو منه الأقباط من ظلم وعدم مساواة فى الوظائف الحكومية .. إلخ ، وعندما اغتيل رئيس الوزراء بطرس غالى كسبت تلك الدعوة زخماً كبيراً فانعقد المؤتمر فى عام ١٩١١ . ورغم أن فكرة المؤتمر بدت لرجال الأحزاب الوطنية على اختلافها أمراً مريباً يحركه الانجليز لتأجيج نار الأحداث الطائفية التى وقعت فى عام ١٩١٠ ، وكان رأى جميع تلك الأحزاب أن المصلحة الوطنية تقتضى عدم عقد المؤتمر — رغم هذا فإن تلك الأحزاب وفى مقدمتها الحزب الوطنى عدلت عن معارضتها لعقد المؤتمر عندما رأت أن الحكومة تضغط على الأقباط لمنع عقد المؤتمر ، أو لتغيير مكانه فى أسيوط . وانبرت الأحزاب للدفاع عن حق الأقباط فى الاجتماع والتعبير عن رأيهم باعتبارهم مواطنين .

(١) محمد سيد الكيلانى — الأدب القبطى ص ٨٦ ، ١٢٩ .

ويلقى الأستاذ طارق البشرى على الموقف بقوله « بهذا الوعي والنضج السياسى عولج الأمر ، ولا شك أن ذلك ترك أثره على المؤتمر نفسه ، فقد وجد المؤتمر أنفسهم الحماية لحقهم من معارضتهم ، ووجدوا أن اجتماعهم يرجع بعض الفضل فى تحقيقه إلى المعارضين لهم فى فكرة المؤتمر ذاتها ، وبهذا فرضت وحدة الحركة الوطنية نفسها على المؤتمر » ، وهدأت النفوس الشائنة ، وعادت لهم ثقتهم فى مواطنهم المسلمين ، وانهزم التيار المتطرف أمام جموع العقلاء داخل المؤتمر وخارجه .

ولنا وقفة هنا نستخلص فيها دالتين هامتين مما جرى حول ذلك المؤتمر . الأولى أن جميع الأحزاب السياسية فى مصر — حتى تلك التى كانت تؤمن بفكرة الجامعة الإسلامية — كانت تؤمن فى نفس الوقت بأن أقباط مصر مواطنون كاملو الوطنية كالمصريين المسلمين سواء بسواء ، ولهذا فإن حقهم فى الاجتماع والتعبير عن رأيهم — مهما كان — حق أصيل . الدلالة الثانية أن النضج السياسى فى مصر فى تلك السنوات المبكرة من القرن العشرين (وقبل وجود دستور) قد بلغ أوجه ، إذ كان الجميع يؤمنون بحق الاجتماع والتعبير عن الرأى . وأن هذا الحق يعلو على أى اعتبار آخر ، وربما كان أنصار فكرة عقد المؤتمر قد رأوا أن الحوار الحر الذى يكشف عما فى الصدور ، وعما فى العقول ، هو أنجح وسيلة لاكتشاف جذور الخلاف ، والقضاء على الفتنة ، وهذا ماتم فعلا .

لقد كان انعقاد ذلك المؤتمر بملابساته ، وبما دار فيه لطمة شديدة لخطاب تيودور روزفلت الذى اتهم فيه المصريين بعدم النضج ، وبعدم تأهلهم لأن يكون لهم دستور . فلقد أثبت له المصريون — بعد شهور قليلة من خطابه — أن وعيهم السياسى سبق الدستور ، وأنهم حققوا ما لم يتحقق فى وجود الدستور .. ١

كان أول الخطباء فى المؤتمر القبطى الذى عقد فى أسبوط فى عام ١٩١١ ميخائيل فانوس الحامى بالفيوم ، فتكلم عن توثيق عرى المحبة بين المسلمين والأقباط وقال : « تختلف مصر عن باقى الأمم المتكونة من عناصر مختلفة الأديان بأن هذه شعوبها من أصول متباعدة ، ولها معتقدات وعادات متباينة ، أما مصر

فشعب أصله واحد من سلالة واحدة من آلاف السنين .. ومن الظلم تسمية المصريين بأنهم عنصران ، فليست العقائد هي التى عليها الأساس ، بل الجنسية » ..

وتكلم فى المؤتمر توفيق دوس مطالبا اسناد الوظائف للأكفاء المصريين بلا تمييز بين عنصر وآخر ، وعارض بشدة تولى الوظائف الحكومية على أساس النسبة العددية لعنصرى الأمة .. ثم عدّد أسماء الأقباط الذين تولوا مناصب عليا فى عهد محمد على حتى عهد الخديوى اسماعيل ، وقال إنه لم يحدث التمييز ضد الأقباط فى تلك الوظائف العليا إلّا بعد الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ .

وهكذا فضح ذلك الوطنى الكبير المؤامرة الخبيثة التى كان ينفذها الانجليز فى مصر بأيدي حكومات مصرية عميلة ، فلقد كان الانجليز يوصون الوزراء المصريين — عن طريق المستشارين الانجليز فى الوزارات — بالتحيز ضد الأقباط عند التعيين فى الوظائف العليا . وفى تلك الفترة حين ينسب هذا التحيز إلى الحكومة المسلمة . وقد أثبت المستشار طارق البشرى فى كتابه القيم « المسلمون والأقباط » تلك المؤامرة وأورد فى ذلك العديد من الوقائع بالأسماء والاحصائيات .

وفى المقابل أثبت أن جماهير المسلمين من الشعب المصرى لم تعرف ذلك التحيز ، وذكر ماورد فى تقرير اللجنة التحضيرية للمؤتمر المصرى « الإسلامى » الذى عقد فى ٢٩ أبريل عام ١٩١١ ردا على المؤتمر القبطى فى أسيوط . فقد جاء فى ذلك التقرير بالنسبة للتمثيل فى المجالس النيابية فى تلك الفترة أن قبطيا أُنتخب فى مركز قليوب ضد أحد كبار الأعيان المسلمين وهو وكيل مجلس شورى القوانين . وانتخب قبطى بمركز « السلطة » وكل ناخبه مسلمون . وانتخب قبطى بمركز الصف والناخبون ٤٠ منهم أربعة فقط من القبط (كان الناخبون بموجب قانون تلك المجالس هم العمدة ومشايخ البلد فقط) . وانتخب قبطى بمركز بنى مزار والناخبون ٥٠ منهم ٥ فقط من القبط . وانتخب قبطى بمركز الفشن والناخبون ٣٦ منهم أربعة فقط من القبط . وانتخب قبطى بمركز ديروط والناخبون ٥٨ منهم ٥ من القبط .

وانتخب قبطى بمركز أبو تيج والناخبون ٣٧ منهم ٦ من القبط . وانتخب بالجمعية العمومية نائب قبطى من نائبين اثنين لمديرية المنيا (٢٧٣ ناخباً منهم ٢٤ قبطى) (١) .

وقد علّق الدكتور محمد حسين على النزاع الطائفى وما دار فى المؤتمرين القبطى والمسلم بقوله : « لم تكن هذه المحنة شراً خالصاً .. ، فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل بين الفريقين ، وكانت تنفيساً شفاً النفوس ، وفرصة لتصفية ما بين الأخوين من خصومة ، وعلاجها بطريقة صحيحة ، واعتذر كل منهما لصاحبه على كل حال .. ، لذلك نستطيع أن نقول ان هذا الشر المستطير كان نقطة البداية فى خير عميم .

وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف فى النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية ، فمن الحق إنها كانت فى نفس الوقت الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية (٢) .



(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢) د. محمد حسين — الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١١٩ — ١٢٠ .

أمجاد الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩

جاءت أحداث ثورة ١٩١٩ فقضت على أى أمل لدى الانجليز فى خلق كيانات سياسية طائفية فى مصر . وتكوّن الوفد المصرى بجميع مستوياته من المسلمين والأقباط . واختلطت دماء العنصرين على حراب جنود الانجليز فكريست الوحدة الوطنية ، وقضت بالفشل على أية محاولة أجنبية فى المستقبل للتدخل فى شئون مصر بدعوى حماية الأقليات . وبقيت الخلافات الطائفية محصورة فى حجمها المحدود ، وفى إطار الوحدة الوطنية الكفيلة بالقضاء على أى خلاف بين المواطن وأخيه على أساس من القانون الذى يسوى بين الجميع . وأيضاً على أساس روح المحبة والتسامح التى كفلها الإسلام والمسيحية . وأخيراً على أساس التاريخ الطويل المشترك ، والجوار السمح الكريم ، ووحدة المعاناة ، ثم وحدة الأمل فى مستقبل أفضل .

والحق أن الأمثلة كثيرة للمواقف الرائعة لأقباط مصر ومسلميها ، خلال تلك الثورة الوطنية ، نذكر منها :

● كان القمص مرقص سرجيوس من أشد المتعصبين لطائفته ، وكان لا يمل الحديث عن ظلمات الأقباط ، ولكن عندما قامت الثورة ، كان هو والشيخان مصطفى القاياتى ومحمود أبو العيون من أخطب من عرفتهم المنابر حضاً على جهاد الانجليز ، وسعياً إلى توثيق عرى الترابط بين المصريين . وقف سرجيوس على منبر الأزهر يوماً يقول : « إذا كان الانجليز يتمسكون ببقائهم فى مصر بحجة حماية الأقباط فأقول : ليمت الأقباط ، وليحيا المسلمون أحراراً .. »

● كان قرياقس ميخائيل مراسلاً فى الأسكندرية لصحيفة « الوطن » المعادية للثورة ، والمثيرة للأحقاد الطائفية ، وكان قد سافر قبل الثورة إلى

لندن حيث أنشأ مكتباً للدعاية والاعلان للدفاع عن مطالب الأقباط وعن مؤتمر عام ١٩١٠ . ولكن ما إن قامت الثورة حتى تحول موقفه بشدة ، وأصبح مدافعا هصورا في لندن عن الثورة ورجال الوفد المصرى . وظل يكشف مساوىء الحكم البريطانى فى مصر ، ويستغل فى ذلك كل صلاته وعلاقاته بالانجليز ، ويصدر « النشرة المصرية » يدافع فيها عن قضية الاستقلال . ويغشى مجلس العموم يقابل من يعرف من أعضائه . ويخطب فى الاجتماعات وتجمعات العمال داعيا لقضية مصر ، ومصححا لما يذاع عنها من أخبار مفسوسة . ولما ضاقت به الحكومة الانجليزية قبضت عليه فى ديسمبر ١٩١٩ وأودعته السجن أياما ، ثم رحلته إلى مصر حيث استقبله بنوها من المسلمين والأقباط بالحفاوة الجدير بها .

● وجريدة « مصر » التى يصدرها تادرس شنودة المنقبادى ، والتى قامت من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١ بأعنف إثارة للفرقة بين القبط والمسلمين ، أصبحت فى عام ١٩١٩ من منابر الوفد المصرى والحركة الوطنية .

● وسينوت حنا ، أحد خطباء المؤتمر القبطى فى عام ١٩١١ ، أصبح عضوا لامعا فى الوفد المصرى ، ومدافعا مجيدا عن وحدة الهلال والصليب . وقد اشتهرت مقالاته فى جريدة مصر تحت شعار « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » .

● وعندما لاحظ الشيخ مصطفى القاياتى أن التفرقة الطائفية تحاول الاطلال برأسها فى عام ١٩٢٢ بمناسبة وضع الدستور ، خطب فى جمهور حاشد من الأقباط فى الكنيسة البطرسيية وقال : « إذا كان الاستقلال سيؤدى إلى فصم عرى الاتحاد ، فلعنة الله على الاستقلال » .

تلك صفحات مضيئة سطرها رجال عظماء من أقباط مصر ومسلميها . القبطى يعلن التضحية بحياته فى سبيل استقلال مصر . والمسلم لا يقبل ذلك الاستقلال إذا كان يؤدى إلى فصم العرى مع إخوانه الأقباط .

ويذكر الأستاذ فخرى عبد النور فى مذكراته أن أبرز خطباء ثورة ١٩١٩

في الأزهر ، والمساجد الكبرى في القاهرة والمدن والقرى ، كانوا علماء الإسلام والفساوسة . وكان القساوسة يرأسون بعض الاجتماعات الوطنية التي تقام في المساجد ، كما كان العلماء المسلمون يرأسون بعض الاجتماعات في الكنائس ، وكان الخطباء بالكنائس في الأعياد القبطية من المسلمين ، كما كان الخطباء بالمساجد في الأعياد الإسلامية من الأقباط . وهذا المظهر كان أبرز كسب للحركة الوطنية المصرية وهي لم تنزل بعد تخطو خطواتها الأولى ، ولقد حققت به ما عجزت الحركة الهندية عن تحقيق مثله^(١) .

كتب مراسل صحيفة « التي باريزيان » الفرنسية في القاهرة يقول « إن المسلمين والأقباط التفوا حول سعد الفلاح ، سعد المسلم الذي كان أجداده لاشك من المسيحيين ، وهكذا تم اتحاد الصليب بالهلال مما لا نظير له في أي بلد إسلامي آخر »^(٢) .

وقد دفع هذا التماسك الفريد بين أقباط مصر ومسلميها في ثورة ١٩١٩ المفكرين إلى بحث أسبابه ، فردّه بعضهم إلى التكوين التاريخي للمصريين ، وقوة تآلفهم عبر القرون ، وارجعوا هذا إلى اعتبار المصريين جنسا يستمد وحدته وملكوته من قانون الوراثة . وفي هذا يقول « ويصا واصف » : « لا يوجد شيء في دائرة الاسلام الواسعة يمنع من التطور الوطني والجنسي في دوائر أصغر .. ، ويوجد بجانب المسألة الدينية مسألة الجنس والوراثة التي هي عامل في تطور الشعوب لا يقل أهمية عن عامل الدين »^(٣) .

وعندما دفع الانجليز يوسف وهبة باشا أحد الوزراء الأقباط في وزارة محمد سعيد المستقيلة إلى رئاسة الوزارة الجديدة في نوفمبر عام ١٩١٩ ، هبّ الوطنيون — مسلمين ومسيحيين — في وجهه ، فقد اعتبروا ذلك تأمرا على سعد زغلول والحركة الوطنية .

وتربص له شاب وألقى على سيارته قنبلتين فأخطأته ، وقبض على الشاب وهو يهتف « ليحيا الوطن » ، وتبين أنه طالب مسيحي اسمه « عريان

(١) مجلة المصور في ٢١ مارس سنة ١٩٦٩ .

(٢) صحيفة « وادي النيل » ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٢ .

(٣) طارق البشرى — المرجع السابق ص ١٣٨ .

يوسف سعد » . وعجز المحققون عن إيجاد أية صلة بينه وبين محرضين مسلمين . وحكم على « عريان سعد » بالأشغال الشاقة عشر سنوات . وتبين فيما بعد أنه كان عضواً في التنظيم السرى للوفد الذى يتزعمه عبد الرحمن فهمى ، وأنه تطوع لاغتيال يوسف وهبة حتى لايساء استخدام الحادث وتأويله إذا قام به مسلم .

مصر للمصريين :

قبل أن ننهى الحديث عن الدروس المستفادة من أحداث ثورة ١٩١٩ وعبرتها ، قد يكون من المفيد ثقافياً أن نتناول بالتحليل الشعار الذى ساد ثورة ١٩١٩ وهو « مصر للمصريين » . فلقد كان هذا الشعار من أبرز شعارات الثورة . وقد ظن بعض الإسلاميين المعاصرين أن ذلك الشعار صكّه المناهضون لدعوة الجامعة الإسلامية ، وأنه بهذا يناوىء الدين الإسلامى ويعمل على إخراجهم من الساحة السياسية ليحل محله التوجه العلمانى الغربى الحديث . ولكن الحقيقة أن ذلك الشعار أقدم تاريخياً من ثورة ١٩١٩ ، وهو برىء من تهمة معاداة التوجه الإسلامى .

فلقد ترددت اصدااء هذا الشعار منذ الثورة العرابية التى كان الوازع الدينى من دوافعها ، وسمّة بارزة من سمات قادتها وانصارها . ونحن نلمس الحماس الدينى واضحاً فى الخطب الثورية لأحمد عرابى وأعوانه . وهذا الشعار رُفع أولاً فى وجه الأتراك والجراكسة المسيطرين على الجيش والادارة ، وفى وجه النفوذ الأوروبى الذى أخذ يتغلغل فى الحياة الاقتصادية والسياسية على عهد الخديوى اسماعيل ، ثم رفع فى وجه الاحتلال البريطانى لتحرر من التبعية الأجنبية ، وكان يعنى الدعوة إلى التخلص من الاحتلال الأجنبى من جهة ، والتخلص من الاستبداد الشرقى من جهة أخرى^(١) .



(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ١٣٢ .

الأقباط ودستور ١٩٢٣

بعد أن صدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ بدأت لجنة وضع الدستور أعمالها . وثارت مسألة تمثيل الأقليات فى البرلمان ، وطالب بعض الأقباط داخل لجنة الدستور وخارجها بتحديد نسبة من مقاعد مجلس النواب للأقباط ، وأيدهم فى هذا بعض المسلمين إذ لم يكن هذا المطلب صادرا عن نزعة انفصالية أو طائفية ، وإنما كان نابعا من خشية ألا تأتى الانتخابات العامة بنواب أقباط فيشعر بعضهم بأن ذلك مرجعه تعصب أغلبية الناخبين (وهم مسلمون) ضدهم ، فضلا عن أن هذا لو حدث سيعطى أعداء الوحدة الوطنية فرصة لاذكاء نار الخلاف بين عنصرى الأمة .

يؤيد هذا النظر أنه عندما اقترح الأستاذ محمود عزمى بأن تنتخب الأقلية ممثلها عارضه الأقباط أنفسهم ، وطالبوا بأن تجرى انتخابات النسبة المخصصة لمقاعد الأقباط بين المصريين عموما ، حتى يكون النائب القبطى ممثلا للأمة جميعا أقباطا ومسلمين مثل النائب المسلم تماما .

بل إن جماهير واسعة من الأقباط كانوا يعارضون مبدأ تمثيل الأقليات ذاته باعتباره مظهرا يجرح وحدة الأمة الوطنية والسياسية . ففى ثانى جلسات اللجنة الفرعية للدستور التى نوقش فيها تمثيل الأقليات وردت للجنة برقية من وديع صليب المحامى بالمنصورة يعلن فيها معارضة القبط — قبل المسلمين — لهذا المبدأ ، ورفضهم مايزيد عن الضمانات الشعبية العامة المكفولة لجميع المواطنين .

كما أعلن القمص بطرس عبد الملك رئيس المجلس الملى العام ورئيس الكنيسة المرقسية الكبرى أن تمثيل الأقليات هو من تطبيقات سياسة « فرق تسد » ، ولعن من يوقظ الفتنة النائمة وأبدى القمص باسليوس وكيل عام البطريركية تخوفه مما ينتج عن هذا التمثيل من عزلة للقبط . وأنكر الكثيرون

أن في مصر أقليات ، لأن الأقليات توجد باعتبار اختلاف الجنس أو الموطن الجغرافي كالأرمن واليونان في تركيا إذ تكون الفوارق جمّة ، بينما لا يوجد في مصر إلاّ الشعب من أصل واحد متجانس في العادات والأخلاق والمزاج العام^(١) .

وعندما طلب الشيخ محمد بخيت عضو لجنة الدستور النص فيه على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، رفع جميع أعضاء اللجنة من الأقباط أيديهم بالموافقة باعتبار أن هذا طبعى وديمقراطى طالما أن أغلبية الأمة من المسلمين^(٢) .

وعاد سعد زغلول من المنفى أثناء المعركة الانتخابية لأول مجلس نيابى فى ظل دستور ١٩٢٣ . وحاول حزب الأحرار الدستوريين وجريدة « الوطن » إثارة الطائفية نكابة فى حزب الوفد الذى رفع شعار الوحدة الوطنية . وكانت أول خطبة لسعد بعد عودته فى القاهرة يوم ١٩ سبتمبر عام ١٩٢٣ قال فيها « إن من يسمونهم أقباطا كانوا ولا يزالون أنصارا للنهضة المصرية الحديثة ، وقد ضحّوا كما ضحيت .. ، وبينهم أفاضل كثيرون يمكن الاعتماد عليهم . فاحثوا التراب فى وجوه أولئك الدسائس الذين يفرقون بين مصريين ومصريين . إنه لا امتياز لواحد على آخر إلاّ بالاخلاص والكفاءة ، فيهم (أى وسط الأقباط) أجسامنا ، وفيهم من هو أفضل من كثير منا ، أقول هذا لأنى أقول الحق ، ويجب على زعيمكم أن يقول الحق » .

ومضى زعيم مصر يتحدث عن الأقباط قائلا : « لقد برهنوا فى مواطن كثيرة على إخلاص شديد وكفاءة نادرة ، وافتخر بأن اعتمد على كثير منهم . نكلمتى ووصيتى فيكم أن تحافظوا على هذا الاتحاد المقدس ، وأن تعرفوا أن خصومكم يتميزون غيظا كلما وجدوا هذا الاتحاد متينا فيكم . ولولا وطنية فى الأقباط ، وإخلاص شديد ، لتقبلوا دعوة الأجنبى لحمايتهم ، وكانوا عندئذ يفوزون بالجاء والمناصب بدل النفى والسجن والاعتقال ، ولكنهم فضلوا أن

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٢) ماجد عطية — جريدة « الشعب » المصرية بتاريخ ١٩٩٢/٦/٢٣ .

يكونوا مصريين معذيين محرومين من المناصب والجاه ، على أن يكونوا محميين بأعدائكم وأعدائهم^(١) .

ولا شك أن قوة سعد زغلول ، وقدرته على قول الحقيقة في وجه الجميع كان لها أثر قوى في دعم الوحدة الوطنية . ولتأمل وصفه للأقباط « إن أولئك الرجال فيهم من هو أفضل من كثير منا » . لاشك أن مثل هذا القول يشعل حماس زعماء الأقباط وجماهيرهم ، ويزيد إيمانهم بأن مواقفهم الوطنية وتضحياتهم في سبيل الثورة كانت في مكانها الصحيح . ولا شيء أذكى للحماس والاخلاص من الاعتراف لذوى الفضل بفضلهم .

وعلى نفس النهج الوطنى رفض سعد زغلول تقييد وزارته بنسبة محددة للوزراء الأقباط ، وأصرّ على أن الكفاءة وحدها هى المعيار ، وأنه يسعى إليها — في وزارته — أينما وجدها سواء بين المسلمين أو الأقباط ، لا فرق . و في فترة العمل بدستور ١٩٢٣ على امتدادها كان الوزراء الأقباط كثيرا ما يتولون وزارات السيادة مثل الخارجية والمالية والحربية .

الاخوان المسلمون والأقباط :

أسس الشيخ حسن البنا جمعية الاخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨ . وسرعان ما برزت إلى الساحة الدينية والسياسية في ثلاثينات هذا القرن . ثم انتشرت بعد ذلك انتشاراً واسعاً في مصر وغيرها من أقطار العالم العربى والاسلامى . ونظراً لأنها كانت أول جمعية دينية تجهر بأهداف سياسية ، فقد أحدثت ومازالت تحدث دويماً في الساحة الثقافية والسياسية .

وقد اكتسبت تلك الجمعية شهرتها وانشارها بفضل عبقرية مؤسسها الذى استطاع أن يعرض الاسلام في إطار جديد ، وان يرى دعاة كبارا مازالوا يتصدرون ميدان الدعوة الاسلامية حتى الآن . وقد أهل تلك الجمعية للاستمرار وضوح فكرها وشموليته ، واحتفاؤها بجوهر الاسلام ومقاصده ، ومرونتها في فروع الفقه ، والأخذ من الدين بما يسره ، ومراعاة ظروف الواقع . ومازالت خطب الشيخ البنا وكتاباتاته هى المرجع الموثق لفكر الجماعة ،

(١) مجموعة خطب سعد زغلول ص ١٢ — ١٤ .

ومصدر أدبيات الاخوان حتى الآن .

يقول الشيخ البنا في رسالته إلى الشباب ، عن موقف الاخوان المسلمين من الأقباط مالى : « يخطيء من يظن أن الاخوان المسلمين دعاة تفريق عنصري بين طبقات الأمة . فنحن نعلم أن الاسلام عنى أدق العناية باحترام الرابطة الانسانية العامة بين بنى الانسان .. كما أنه جاء لخير الناس جميعا ، ورحمة من الله للعالمين . ودين هذه مهمته أبعد الأديان عن تفريق القلوب وإيغار الصدور .. ، وقد حرّم الاسلام الاعتداء حتى في حالات الغضب والخصومة ، وأوصى بالبر والاحسان بين المواطنين وإن اختلفت عقائدهم وأديانهم ، وأوجب إنصاف الذميين وحسن معاملتهم ، فلهم مالنا ، وعليهم ماعلينا . نعلم كل هذا فلا ندعو إلى تفرقة عنصرية ولا إلى عصبية طائفية » .

وقال الشيخ البنا في رسالة « دعوتنا » : « وأحب أن أنبهك إلى سقوط الزعم القائل بأن الجرى على هذا المبدأ (هداية البشر بنور الإسلام) يمزق وحدة هذه الروابط بين الجميع ماداموا متعاونين على الخير » . وكتب في « نحو النور » شارحا موقف القرآن الكريم من غير المسلمين فقال : « إنه لم يشتمل على حمايتهم فقط ، بل أوصى بالبر بهم والاحسان ، وقدس الوحدة الإسلامية ، ثم قدس الوحدة الدينية العامة ، وقضى على التعصب ، وفرض على أبنائه الايمان بالأديان السماوية جميعا .. هذا الاسلام الذى على المزاج المعتدل ، والانصاف البالغ ، لا يمكن أن يكون اتباعه سببا في تمزيق وحدة متصلة ، بل بالعكس انه أكسب هذه الوحدة منعة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدنى فقط » .



الفصل الخامس

هل الثقافة الإسلامية تراث للمسلمين فقط
دون الأقباط؟!؟

هل الثقافة الإسلامية تراث للمسلمين فقط دون الأقباط ؟

التراث بمفهومه الواسع أعم من الدين والتاريخ والأثر وإن كان يشملها .
إنه جماع كل ما يترسب فى الوجدان من عقيدة ، وأحداث تاريخية ،
وأحداث شخصية مثيرة للانفعال . كما أنه يشمل العادات والتقاليد
الاجتماعية . ونكاد نقول ان كل ما يقرأه الانسان أو يسمعه أو يقع عليه بصره
ويحرك مشاعره ، و يترسب فى وجدانه على امتداد حياته ، يعتبر تراثا .

إن الطفل القبطى جورج الذى يلهو مع أقرانه فى قرية بصعيد مصر ،
لا بد أن يترسب فى وجدانه هيئة عمه الشيخ أحمد عندما كان يمسح يده
على رأسه ويعطيه مصروفا فى عيد الفطر أسوة بما يفعل الشيخ مع ابنه
محمد . ولا بد أن يوم العيد الاسلامى هذا سيرسخ فى ذاكرته حيث يرتبط
بخروجه مع أصدقائه محمد وعلى ومتياس فى نزهة على شاطئ النيل ، أو
مغامرة عوم على صفحته .

ولن ينسى جورج مهما امتد به العمر صوت المؤذن وترانيم المنشد
المنبعثة من مئذنة المسجد فى ليالى رمضان ، خصوصا عندما كان صوت
المؤذن طبيعيا وليس زاعقا من فوهة ميكروفون هذه الأيام . كذلك لن ينسى
محمد يوم ان كان صبيا غريرا يسبح فى النيل دون دراية فاوشك على الغرق ،
واستغاث ، وإذا بعمه « ميلاد » يغيثه وينقذه .

وأبطال مصر الحديثة ، محمد على الكبير ، و ابراهيم باشا بفتوحاته فى
الشام وتركيا ، وأحمد عرابى بثورته ضد الخديوى المستبد والأجانب
المستكبرين . وشعراء مصر العباقرة كشوقى وحافظ ، وشعرهم الرائع فى
الغزل والوطنيات والاسلاميات ، وخطب مصطفى كامل ضد الاحتلال
البريطانى ، كل هذا وغيره مما تعلمه جورج فى المدارس لا بد أن يترسب فى
وجدانه ويصبح تراثا ، تماما مثلما ترسب فى وجدان رفيق صباه محمد أحمد .

إن موال أدهم الشرقاوى ، وسيرة الهلالية التى سمعها جورج من الشاعر الشعبى فى ساحة « الجرن » ، فى ليلة مقمرة لا يمكن أن ينساها مهما اتسع علمه بعد ذلك ، وقرأ فى الأيديولوجيات والمذاهب السياسية . ورواية « وإسلاماه » أو « عبقرية عمر » التى درسها فى الثانوية العامة لا بد أن يعلق بذهنه منها الكثير . وإذا كان جورج قد درس فى صباه الباكر مع جاره محمد فى كُتّاب القرية ، فلا بد أن تحتفظ ذاكرته ببعض آيات القرآن الكريم لاسيما تلك الآيات السهلة ، التى تخاطب الفطرة ، كقوله تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . وعندما يشب جورج عن الطوق فاغلب الظن أنه سيقارن معنى تلك الآية بما ورد فى الانجيل من الحث على التواضع والسلام والمحبة .

ولن ينسى جورج ومحمد يوم أن رأيا مع جمع غفير من أهل القرية عمهما اسحاق وهو يحمل جثة ابنته دميانة — الشابة الحسنة التى كانت تهفو إليها أفئدة شباب القرية — بعد أن قتلها أبوها نزولا على تقاليد أهل الصعيد ، لأنها وقعت فى حب قوى مع شاب مسيحي دون علم أهلها . إن أمثال تلك الحوادث لا بد أن تسهم فى بناء التكوين النفسى لكل من جورج ومحمد .

ومن الذكريات المشتركة لجورج ومحمد ، فى صباهما الباكر ، مرورهما يوميا فى طريقهما إلى المدرسة الابتدائية « بدير مواس » على المسجد بمئذنته السامقة ، وعلى دير الرهبان المختفى وراء أشجار كثيفة عالية ، وكم كانا يقفان أمام السور ليريا الرهبان وهم يخطرون كحمام السلام بين الأشجار . إنهما بعد أن بعد بهما الزمان ، وبدأ المشيب يخط فوديهما مازالا يتذكran تلك الأيام عندما يجمعهما اللقاء كل حين .

ولا ينسيان ما حدث لجورج فى حرب عام ١٩٦٧ . فعندما دخل الجيش حرصا على أن يكونا فى « وحدة » واحدة . وعند عودتهما المحزنة من خط القتال عند غزة فى الانسحاب الشهير ، أدركتهما طائرة إسرائيلية تهاجم فلول المنسحبين ، وأطلقت عليهما نارا أصابت جورج فى جبهته وصدره . وأيقن أنه هالك فطلب من محمد أن ينجو بنفسه فأبى ، وظلا يتعذبان فى الصحراء الحارقة إلى أن أدركتهما رحمة الله بأعرابى آواهما .

وكان الذى يعذب جورج أنه لم يُصب فى قتال والتحام مع العدو ، حتى تكون الندبة العميقة التى ظلت على جبهته وسام شرف ، وإنما أصيب خلال انسحاب . وكان محمد يواسيه قائلاً انهما لم يفرا من معركة ، فهما لم يدخلتا معركة أصلاً . وكان انسحابهما تنفيذا لأمر من قائد أعلى . وكنا حريصين على القتال حتى النصر أو الشهادة ، ولكن هكذا شاء القدر . فلا تثريب عليهما ، وفى سبيل الله والوطن ماأصاب جورج .

لاشك أن الأحاسيس والمشاعر المختلطة ، والذكريات التى خلفها هذا الحادث هى بعينها ما ترسب فى وجدان كل منهما ، وأضافت إلى تكوينيهما النفسى بعداً جديداً واحداً .

ولا أظن أننى بهذا التصوير الرمزى قد شططت فى الخيال ، وجاوزت حدود الحقيقة — أعنى حقيقة العيش المشترك ، والكفاح المشترك ، بما يحوبانه من آلام وآمال . وأليست وحدة الألم والأمل هى أهم مكونات الوجدان الجمعى الذى يبنى الشعب الواحد ؟

أثر اللغة العربية فى وجدان المسلمين والمسيحيين :

منذ أن جعلت الكنيسة القبطية اللغة العربية لغة الصلاة والمواظ ، وكذلك الكنائس المسيحية الأخرى فى أرجاء العالم العربى — أصبحت اللغة العربية هى اللغة القومية لمسيحيى مصر والعالم العربى . وأقبل نوابغ المسيحيين على تلك اللغة ينهلون منها حتى عشقوها وأبدعوا فيها . وظهر فى العالم العربى شعراء فحول من المسيحيين مثل بشارة الخورى ، وجورج شرادق ، وخليل مطران أضفوا على الشعر العربى آيات من الرقة والجمال . وحتى الشعراء المسيحيين الذين هاجروا من الشام إلى أمريكا ، ظلوا فى مهجرهم يشدون بالشعر العربى ، وكم تغنينا فى مصر ببدايع إيليا أبو ماضى ومعاصريه .

على أن اللغة العربية لم تكن بالنسبة للمسيحيين لغة تخاطب وشعر

فحسب ، فاللغة — أية لغة — هى وعاء الثقافة والتراث . ولهذا كان المثقفون المسيحيون فى كافة الأقطار العربية من أقطاب حركة القومية العربية التى ازدهرت منذ ثلاثينات هذا القرن فى مواجهة الاحتلال الأجنبى أولا ، والتوجه الغربى (أو التغريب) ثانيا .

ولكن إذا كانت القومية العربية قد غدت عقيدة وطنية أو سياسية لجمهرة المسيحيين العرب ، فماذا عن الإسلام بالنسبة لهم ؟ إن الواقع يدل بوضوح على أن الإسلام فى جملته أصبح ثقافة قومية وتراثا للمسيحيين العرب ومنهم أقباط مصر جميعا ، سواء من اعترف منهم بذلك أو من أنكره لأسباب مختلفة . ولما كانت الثقافة الرفيعة تكسب صاحبها قوة الاعتراف بالحقيقة ، وتناهى به عن التعصب الطائفى الذى لا مبرر له ، فقد كان المفكرون والساسة العرب من المسيحيين لا يجدون أدنى حرج فى الاعتراف بالحيز الواسع الذى يحتله الإسلام فى عقلهم ووجدانهم ، بل وفى توجههم السياسى . وقد بلور هذه الحقيقة الزعيم السياسى المصرى مكرم عبيد فى قوله المشهورة « أنا قبطى ديناً ، ومسلم وطناً » . لقد جعل الإسلام عقيدة وطنية . وقد رأينا فيما سبق أن قدما — وفيما سياتى فى هذا الكتاب — أن هذه الكلمة ليست قاصرة على مكرم عبيد ، وإنما أعلنها كثيرون قبله وبعده .

فالمسيحيون العرب عموماً الذين اشتغلوا بالفكر والعمل السياسى ، وجدوا فى الإسلام — بالإضافة إلى كونه ثقافة وتراثاً مشتركاً — وعاءً لفلسفة شاملة ، ومصدراً لدوافع التحرر والانعقاد من الحكم المستبد ، ورأوا فى تعليماته الشاملة قاعدة راسخة للنهوض الاجتماعى والحضارى عموماً . لقد أدركوا — بعد دراسة — أنه دين سماوى لم يقتصر على العقيدة الإلهية والعبادات ، بل وجدوا فيه مشروعاً حضارياً يلامم الشرق العربى تماماً .

ميشيل عفلق والإسلام :

يتحدث الدكتور محمد جابر الأنصارى فى كتابه « تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى » عن فكر ميشال عفلق مؤسس وزعيم حزب « البعث العربى الاشتراكى » — أكبر حزب سياسى ظهر على الساحة العربية منذ ثلاثينات هذا القرن حتى الآن — فىقول : « لقد اكتشف ميشال

عفلق منذ أن خرج من تحت تأثير الفكر الماركسى عام ١٩٣٦ أن هناك علاقة خاصة وفريدة واستثنائية بين الإسلام والعروبة ، وأنه لم ترتبط قومية بدين كما ارتبطت القومية العربية بالإسلام الذى مثل عبقرية الأمة ، وانسجم مع طبيعتها .

ويمضى الدكتور الأنصارى قائلاً : « إن ماكتبه ميشيل عفلق عام ١٩٤٣ بمناسبة الاحتفال « بذكرى الرسول العربى » واضح الدلالة على هذا الموقف إذ يقول : « إن حركة الاسلام ليست بالنسبة للعرب حادثاً تاريخياً فحسب ، تُفسر بالزمان والمكان ، وبالأسباب والنتائج ، بل إنها لعمقها وعنفها واتساعها ترتبط ارتباطاً مباشراً بحياة العرب المطلقة . أى أنها صورة صادقة ورمز كامل خالده لطبيعة النفس العربية وممكناتها الغنية واتجاهها الأصيل .. فالإسلام هو الهزة الحيوية التى تحرك كامن القوى فى الأمة العربية فتجيش بالحياة الحارة .. مُرجعة اتصالها مرة جديدة بمعانى الكون العميقة » .

أليس هذا التقرير الصادر من فيلسوف وسياسى مسيحي هو ميشيل عفلق تأكيداً وتفسيراً لمقولة السياسى الكبير مكرم عبيد « أنا قبطى ديناً ، ومسلم وطناً » ؟ .

ويقول الدكتور الأنصارى : « .. غير أن البعث (الحزب) عبر مسيرة التجربة الطويلة — خارج الحكم وفى الحكم — مرّ بمراحل فكرية ، ومناخات نفسية ، بعضها قريب من الماركسية أو « الاشتراكية العلمية » ، وبعضها قريب من العلمانية ، وبعضها الآخر اقترب إلى منطلقه الأصيل فى الدمج بين العروبة والإسلام . فأى حالة وأى مرحلة كانت الأقرب والأصدق تعبيراً عن المنطلق الفكرى الأساسى (لحزب البعث) ؟

ويجب الدكتور الأنصارى على تساؤله قائلاً : « ربما اسعفتنا فى الاجابة على هذا السؤال الدقيق وقفة فكرية استرجاعية وقفها ميشيل عفلق فى نهاية المطاف فى عام ١٩٧٦ من موقفه الأول فى مطلع الأربعينات ، فإذا هو يجد نفسه أكثر تصميمًا على رفض الفكرة العلمانية القاطعة ، وأكثر اقتراباً من روح الإسلام العربى أو العروبة المسلمة ، وأكثر ابتعاداً عن المفهوم الأوروبى للقومية والتفسير الماركسى للدين ، وأكثر إلحاحاً على دعوة المسيحيين العرب للاقتراب

الحميم من الإسلام في سبيل تأكيد صدق عروبتهم ذاتها .

قال ميشيل عفلق من منطلق الموقف الفكرى الأول بعد ان اندمجت فيه تجربة ثلث قرن من الصيرورة العربية ، سلبا وإيجابا ، تقدما وتراجعا — قال : « قراءة للتراث تعطى للثورات في العالم ، ولثورات هذا العصر ، بما فيه الثورة العربية ، نسبية معينة ، لأنها جميعا ثورات بشرية بحدود طاقة الانسان مهما بلغت هذه الطاقة . وتجربة الأمة العربية من خلال الإسلام فيها شيء مطلق ، في حين أن كل شيء آخر نسبي قد يعيش عشر سنوات أو مائة سنة ولكن ليس فيه صفة الخلود » .

ويفسر الدكتور الأنصارى تلك العبارات لميشيل عفلق فيقول : « إذن فالرسالة العربية الخالدة — من منظور ميشيل عفلق — ماهى إلا ذلك المطلق الإسلامى الذى يدفع العروبة فوق ماهو نسبي من قوميات وفلسفات أخرى ، ويمنحها — وحدها — صفة التفرد وامتداد اللانهاى . وتمسكا بهذا المطلق الاسلامى المثالى المميز للعروبة رفض عفلق المفاهيم النسبية التجريبية المتسخرجة من تجارب القوميات الغربية ، وعلى الأخص مفهوم العلمانية المتجذر فى التراث الأوروبى من ثنائية الكنيسة والدولة — والذى من شأنه أن يفقد العروبة خصوصيتها المطلقة إذا فصلت عن الاسلام .

ثم يعود الدكتور الأنصارى إلى نص كلام ميشيل عفلق حيث يقول : « فى بداية تجربتنا (فى حزب البعث) كانت هناك دعوات واتجاهات قومية تقول بالعلمانية ، وتعتبر القومى العربى هو الذى يتجرد من معتقداته الدينية ، ويلتقى مع أخيه العربى على صعيد القومية العربية الحقوقية ، والرابطة الوطنية . وكان لهذا المذهب رواج كبير بين الشبيبة المثقفة . ولكننا لم نستسغه ، ولم ننخدع به ، واعتبرناه فى أحسن الحالات تفسيراً سطحيًا وجامداً غير معبر عن الروابط العميقة التى تربط العربى بقوميته . وكان من الجائز الاشتباه فى هذه الدعوة (العلمانية) لأن المستعمر الأجنبى الغربى الذى كان يحتل أقطارنا ، لم يكن يخفى ارتياحه لهذه العلمانية ، بل كان يشجعها ، لأن ذلك كان يؤدى إلى إفقار قوميتنا من دمها ، ومن نسغ الحياة فيها ،

ومن أصالتها وروحها . لذلك كان من أول ما تصدينا له هو هذه القومية المجردة » .

« وأذكركم — مازال الكلام لميشيل عفلق — ببعض الكلمات التي كانت تشير إلى ذلك ، فهناك إشارة في كراس « ذكرى الرسول » إلى القومية التي تأتينا من الغرب على النمط الأوروبي ، وتشير إلى الفارق بين قوميتنا وبين القوميات الغربية ، وإلى أن الإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولتنا ، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . وإشارات كثيرة أخرى لنا (في هذا الموضوع) يصعب حصرها وتعدادها . فما الذي يضطرنا ، لكي نكون قوميين سليمي الانتماء ، أن نطرح كل هذا من حياتنا ونضعه على الهامش . إذا نحن نظرنا إلى واقعنا الحثي نجد فيه تلك العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام » .

ويستمر مؤسس حزب البعث وفيلسوفه المسيحي في طرح فكره عن العلاقة العضوية بين الإسلام والعروبة فيقول : « ولكننا وضعنا الأمور في نصابها عندما وضعنا الإسلام — كثورة أخلاقية وفكرية واجتماعية حاسمة في تاريخ البشر — في صلب القومية العربية . بهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم . هذا إذا كان العربى صادق العروبة ، متجردا من الأهواء والمصالح الذاتية . العروبة تعنى الإسلام بهذا المعنى الرفيع .. » .

ويعرب ميشيل عفلق عن ارتياحه لأن عددا من رجال الدين المسيحي — في لبنان خاصة — قد توصلوا مؤخرا إلى الاقتناع بتلك الحقيقة ، ويقول : « إن جميع المسيحيين في هذا الشرق العربى إذا لم يقبلوا عن طوع وإرادة واقتناع ومحبة بأن يكونوا بمعنى من المعانى مسلمين ، فإنهم لا يكونون أمناء لفكرهم ووطنهم وعروبتهم » . ويضيف « هذا ماقلناه قبل ثلاثة وثلاثين عاما في سنة ١٩٤٣ بأن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم ، سوف يعرفون أن الاسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ، ويحرصوا عليها حرصهم على أمن شئ في عروبتهم .. وتطور الأحداث خلال ثلاثين عاما أوصل إلى هذه النتائج عند البعض ، وهى بدايات لاشك انها ستكون لها تتممة ، فإذا لم يكن لنظرة كنظرتنا أن تأخذ بخرافة العلمانية وسطحيها ، وإن كنا لانجادل في الحدود والتطبيقات القانونية والدستورية لما يفهم من العلمانية .

ولكن العلمانية بمعنى إهمال وبتر أهم شيء في قوميتنا وفي تاريخنا وتكويننا النفسى والعقلى فأمر غير مقبول وغير واقعى » .

وميشيل عفلق يفرق هنا بين مفهومين مختلفين للعلمانية ، فهو يرفض العلمانية الفكرية الواردة من أوروبا والتي تفرق بين الدين والدولة وتباعد بينهما تماما . ويقبل العلمانية بمفهومها الدستورى والقانونى حين تسوى بين جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات ، وتصفهم فى صف واحد أمام القانون مهما اختلفت دياناتهم وأعراقهم ومذاهبهم^(١) .

وقد توصل المفكر المسيحى قسطنطين زريق إلى نفس النتيجة التى استقر عليها فكر ميشيل عفلق إزاء الاسلام ، فيركز قسطنطين زريق فى كتابه « الوعى القومى » على أهمية « أن تكون لنا عقيدة قومية دافعة إلى العمل المنظم ، ومستمدة من فلسفة قومية أشمل . أما مصدر هذه الفلسفة المتضمنة لروح المسئولية الجماعية ، الحافظة لنسيج المجتمع فليس سوى الاسلام^(٢) .

وأخيرا يعترف الأستاذ أنور عبد الملك المفكر المصرى المسيحى الماركسى — بأهمية الاسلام فى الحركة السياسية العربية ، ويدعو إلى التحالف مع تيار الاسلام السياسى حين يقول : « من المستحيل أن ينجح شخص يسعه ولو للحظة واحدة أن يستبعد الاسلام السياسى المعاصر . وهل من حاجة إلى أن نشير إلى أن الاسلام السياسى هو فلسفة الأخوة ، ومفهوم المساواة بين كل الجماعات الانسانية ويوجه نخاص أهل الكتاب أتباع الديانات التوحيدية الثلاث .. إن الاسلام السياسى ، ومنذ أكتوبر عام ١٩١٧ هو حليف كل القوى الاشتراكية فى العالم » .

فكتور سحاب :

فى كتاب من يحمى المسيحيين العرب ؟ « يقول مؤلفه فكتور سحاب المفكر المسيحى اللبناى ، انه لا بد من إزالة الالتباس بين الاسلام الدين والاسلام الحضارة .. ويوضح فكرته فى أن الاسلام الحضارة ملك للمسلمين والمسيحيين

(١) د. محمد جابر الأنصارى — تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى ص ١٢٢ — ١٢٩ .

(٢) قسطنطين زريق — الوعى القومى ص ١١٢ ، ٢٠٧ طبعة ١٩٣٩ .

العرب على السواء ، ومهيمن على مشاعرهم ، فيقول : « أفلا يطرب العربى المسيحى ، مثل المسلم ، لبلاغة اللغة العربية ، وقوة الشعر العربى المسبوك بلغة القرآن ؟ أفلا تهزه الموسيقى العربية الغنائية المنحدرة من التجويد القرآنى ؟ أفلا تستهويه خطوط العمارة الاسلامية ؟ أفلا تعتمل فى صدره عواطف من نمط عربى لاشبيه لملها فى الغرب ؟ أفلا تحكم عقله مفاهيم اجتماعية وعائلية مماثلة لما يحكم عقل المسلم العربى(١) ؟ .

ثم يتجه المؤلف المسيحى المارونى إلى الاجابة عن سؤال « من يحمى المسيحيين العرب ؟ » فيقدم عرضا تاريخيا لعلاقة الدول الغربية بالمسيحيين العرب ، يبدأه بما فعلته بهم الدولة البيزنطية فيذكر أنه « فى مجزرة بيزنطية واحدة قتلت الدولة فى مصر مائتى ألف قبطى من أنصار الطبيعة الواحدة واليعاقبة .. ، وعندما فتح العرب مصر كان الأكليروس القبطى مختبئا برمته فى الصحارى هربا من التصفية » .

ويمضى فكتور سحاب قائلاً : « ولم يتوقف اضطهاد المسيحيين العرب (اضطهاد بيزنطة لليعاقبة ، واضطهاد اليعاقبة فى المقابل للخلقيدينيين) إلاّ عند ظهور الاسلام على البلاد ، وقيام معاوية على الحكم فى ولاية الشام قبيل إنشاء الخلافة الأموية .. وتروى التواريخ الكنسية والاسلامية العربية أن معاوية استقبل وفودا من الرهبان الخلقيدونيين ، جاءوا ليرتجعوا إليه أمر أدبرتهم وبيعهم التى كان اليعاقبة يستولون عليها .. وان الوالى العربى أمر بإحصاء ممتلكات كل طائفة ، ومنع استيلاء أى طائفة على ممتلكات الأخرى حتى ساد السلام بينها » .

ويقول فكتور سحاب إن الدول الغربية المسيحية على اختلافها ، وطوال التاريخ ، لم تسع أبدا إلى حماية المسيحيين العرب ورعايتهم ، وإنما كانت كلما لاحت لها مصلحة سياسية استعمارية فى المشرق العربى تحاول استغلال المسيحيين العرب فى حرب أوطانهم الاسلامية العربية ، فإذا اضطرت إلى الخروج من أقطار المشرق تركت المسيحيين العرب يجنون الثمار المرة لتعاونهم مع الغرب المسيحى .

(١) جريدة الشعب المصرية — ٢١ يوليو ١٩٩٢ — من عرض لكتاب فكتور سحاب .

ويقول أيضا : « ومهما يكن فإن التاريخ العربى فى طوله ، وفى مصادره الاسلامية والكنسية على السواء ، لا يروى حادثة واحدة يمكن تشبيهها من قريب أو بعيد باضطهادات بيزنطية للمسيحيين اليعاقبة ، أو باضطهادات محاكم التفتيش الاسبانية للمسلمين أو العرب أو المستعربين فضلا عن اليهود ، فلقد تمتعت المذاهب المسيحية العربية على اختلافها ، بعد ظهور الاسلام ، بالحرية التى كانت تقاتل من أجلها تحت حكم بيزنطية ، منذ دخولها فى ذمة المسلمين ، أى فى إطار دولتهم .

« وإذا استقصينا مواقف الدولة الاسلامية الناشئة من أعدائها داخل الجزيرة العربية وخارجها ، تبين بوضوح أن الاسلام فى الجزيرة العربية حارب عبادة الأوثان قبل أى شئ آخر ، كما حارب التناحر القبلى الذى كانت عبادة الأوثان التعبير العقائدى له ، فوحد الله ليوحد عابديه . وخارج الجزيرة العربية حارب الاسلام سلطان الدولتين الكبيرين آنئذ ، بيزنطية وفارس . ولم يكن النصرارى العرب فى يوم من الأيام على سجل الأعداء ، بل العكس . ووقت أن كانت جميع دول الأرض لاترضى بدين آخر داخل تخومها ، كانت دولة المسلمين فى عز انتصارها وقوتها وغناها عن الملاينة والمسايرة ، تستحدث نظام تعدد الأديان فى الدولة الواحدة ، نظام أهل الذمة .

ويمضى فكتور سحاب قائلا : وفى رأى أن نسبة هذا الاجراء (نظام تعدد الأديان) إلى السمو الخلقى وحده لا يفسر الأمور بعمق . والأرجح عندى أن النصرانية الآرامية — العربية — القبطية كانت حليفا طبيعيا للاسلام فى إطار الصراع التاريخى الذى ظل يتجاذب المنطقة قرونا قبل ظهور الاسلام . وهذا يعنى أن دولة الاسلام كانت حليفا طبيعيا للنصارى العرب ، ماداموا فى صفها السياسى ، لا فى صف الدول العدو ، ولا حاجة إذن بالمسيحيين العرب إلى الغرب ، بل إن الغرب هو الذى توسل إلى مصالحه بحماية من المسيحيين العرب ، وجعلهم فى كثير من الأحيان يدفعون من دمهم ثمن تحويلهم إلى متاريس يحتبىء وراءها . حدث ذلك كلما كانت تقوم للغرب دولة فى منطقتنا : الحقبة البيزنطية ، والحقبة الصليبية ، والحقبة الحالية . فمن إذن يحمى النصرارى العرب من « الحماية الغربية » التى كانت وبالا عليهم عبر

العصور ؟ ألم يطلب فارس الخورى السياسى السورى المسيحى البارز حماية المسلمين للنصارى العرب من مرامى الدول الغربية ونوازعها ؟ » .

ويرى فكتور سحاب أن الضمان الوحيد « حتى لا يظل المسيحيون العرب يدفعون ثمن مدّ النفوذ الغربى وجزره كل مرة ، هو رفض التوجه نحو الغرب ، وتوسيع مساحة العيش المشترك مع المسلمين إلى أقصى الحدود ، حتى لا يبقى من مساحة الاختلاف فى حياتنا غير الدين . والإسلام فى دولته التاريخية اتسع لمواطنين مسيحيين ، بل أثبت أنه أكثر اتساعا للمسيحيين العرب من دولة بيزنطية المسيحية . ولا شك أن الدولة العربية الحديثة تستطيع بلا عناء أن تكون فى مثل رحابة الدولة العربية الإسلامية الأولى على الأقل ، ولكن ذلك لا يظل مضمونا إذا لم يقاوم المسيحيون العرب محاولات تغريبهم » .

وقد يحس القارئ المصرى شيئا من الغرابة فى إفاضة الأستاذ فكتور سحاب فى الحديث عن محاولات تغريب المسيحيين العرب ، وما جرى لهم من هذه المحاولات . وهذا راجع إلى كونه لبنانيا ، وتأثره بما حدث للمسيحيين العرب فى الشام من جرّاء الحرب الصليبية قديما ، ثم بما حدث فى العصر الحديث لوطنه لبنان من حروب طائفية مهلكة كان سببها توجه طائفة الموارنة الثقافى والسياسى نحو الغرب ، وفرنسا بالذات ، وما نجم عن هذا التوجه من خراب ومذابح فى لبنان لم تحف دماؤها بعد .

وأخيرا ، يقول الأستاذ فكتور سحاب : « وإذا شارك المسيحيون العرب المسلمين أذواقهم ولغتهم ووجدانهم الاجتماعى ، فإن خير تكريس لهذه المشاركة هو الانضمام بلا تردد إلى العروبة الحضارية والسياسية الرافضة للسيطرة الغربية . إن هذه المشاركة تهم المسلمين لأنها إحدى ضمانات سيادتهم ، لكنها تهم المسيحيين أكثر لأنها ضمان مصيرهم . وفى إمكان المسيحيين العرب أن يتداولوا كلمة السرّ العظيمة التى ردها فى مثل ظروف اليوم الزعيم اللبنانى يوسف كرم منذ أكثر من قرن حين دعا المسيحيين إلى عدم تعليق الآمال على الدول الأجنبية لأن لها مشاريعها ومطامعها الخاصة بها . ويستطيع المسيحيون العرب أن يجدوا دائما من يشجعهم على مخاصمة أبناء قومهم والالتحاق بالغرب . لكنهم لن يستطيعوا دائما أن يجدوا من يقاتل بالنيابة عنهم .

ولو أراد الغرب أن يقاتل بنفسه لما اتبع سياسة دفع المسيحيين إلى خطوط النار . لقد أثبت التاريخ للمسيحيين العرب أن التغريب يسوقهم إلى الهلاك ، وأن التغريب أكثر مدعاة إلى اطمئنانهم إلى مصيرهم .

اختلاف التوجه بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية :

بالإضافة إلى التراث العربى الاسلامى للمسيحيين العرب ، فإن مسيحيّتهم تختلف عن مسيحية الغرب فى توجهاتها . فالتاريخ يروى أن أغلب كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية فى عصور الاقطاع كانوا يوالون الملوك والأمراء ، ويحيون حياتهم الباذخة ، ولم يأبهوا كثيرا لشعوبهم الفقيرة المظلومة . ولهذا تأصلت فى قلوب مثقفى ذلك العهد ومفكره كراهية رجال الكنيسة . وما أن اشتعلت الثورة الفرنسية حتى أطاحت برموز عهد الاقطاع بما فيهم السلطة الكنسية .

وفى العصر الحديث ، دخلت فى مجرى الحياة السياسية والثقافية فى الغرب أفكار الملحدّين والشيوعيين التى تولدت عنها أنماط سلوكية شاذة باسم الحرية ، ولم تستطع الكنيسة الغربية مقاومتها ، بل للأسف هادنتها وجاملتها . فى عام ١٩٩١ نشرت بعض الصحف الخبر التالى : « من المتوقع أن تناقش الكنيسة الأسقفية — أكبر طوائف الكنيسة البروتستانتية — الأمريكية هذا الأسبوع مبدأ القساوسة الشواذ جنسيا ، ومباركة الكنيسة لزواج شخصين من نفس الجنس ! .. أكدّ تقرير الكنيسة أن وجود الشواذ والشاذات فى سلك الكهنوت لم يعد سرا ، وأن الكنيسة لايمكن أن تدافع عن حقوق الشواذ والشاذات فى المجتمع عموما إذا كانت تحرم العاملين فى سلك الكهنوت هذه الحقوق نفسها ! » (١) .

أما الكنيسة القبطية فى مصر فلقد كان لها سبيل آخر ، فقد تمسك آباؤها الأولون بدينهم ودخلوا بذلك فى معارك رهية مع الدولة البيزنطية المسيحية ، وسقط منهم شهداء كثيرون ولم يكونوا كأقراهم فى أوربا ينحازون إلى الملوك والأباطرة ويبيعون دينهم بحياة الرغد والأبهة ، وإنما كانوا — فى أيام القهر —

(١) جريدة الوفد المصرية ٩ / ٧ / ١٩٩١ .

يلزمون أديرتهم وكنائسهم ، ويحنون على رعاياهم ويصبرون معهم ، ولم يبيعوا أبدا ملكوت السماء بملك الأرض .

وفي العصر الحديث لم تستطع الأفكار الانحلالية أن تغزو الكنيسة القبطية ، فظلت حياة أقباط مصر تجرى على سنن الاستقامة والطهارة .

تقول الأستاذة هبة سعد الدين : « عندما تبنى الغرب المسيحية لم يتشكل على صورتها الأساسية ، وإنما أخرجها على صورته وشكله وهيقاسه . ولهذا لا تستطيع مسيحية البلاد العربية أن تجد خيوطها موصولة مع تلك المسيحية التي طوّعها الغرب لتخدم نظام العبودية ، ثم نظام الأقطاع ، ثم نظام الرأسمالية .. وواكبت الحملات الصليبية ، ثم المجازر الجماعية في الأندلس ، بل وحتى في أمريكا بحق الهنود الحمر ، ثم بحق الأفارقة في ظل تجارة العبيد ، ثم وصل الأمر إلى مباركة بعض الكنائس البروستانتية الغربية لقيام دولة الاغتصاب الصهيوني في فلسطين ، ومازال بعضها يدعم المؤسسات الصهيونية حتى يومنا هذا(١) .

العالم العربي والنظام الدولي الجديد :

نشرت جريدة الأهرام يوم ١٩٩٢/١٢/٦ حديثا للجنرال الفرنسي « بيير جالوا » أحد كبار المتخصصين في الاستراتيجية الدولية ، حاول فيه أن يرسم معالم « النظام الدولي الجديد » ، فقال إن عماد ذلك النظام لن يتغير عن سابقه إلا من حيث أقطابه ، فبعد أن كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي هما قطبا النظام المنصرم ، سيكون النظام الجديد ثلاثي القطبية ، فتسيطر عليه أحلاف ثلاثة : « أولاها حلف الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ، وثانيها الجماعة الأوروبية ، وثالثها اليابان ودول شرق آسيا . أما بقية العالم — ومنه الأقطار العربية — فسيحرص أقطاب النظام العالمي الجديد على إبقائه متخلفا خادما لثرائه . وسيحرص على إبقائه في دائرة نفوذه كي يضمن استغلال ثرواته — خاصة البترولية — بأبخس الأثمان .

ولكن الاستراتيجية الفرنسية يستدرك قائلا « ان بوسع العالم العربي أن

(١) جريدة الشعب المصرية ٢٤ / ٩ / ١٩٩١ .

يقف في وجه هذا المخطط العالمى الجديد ، فالمنطقة العربية لها اسهامات ضخمة في الحضارة الانسانية في الماضى ، واعتقد أنها قادرة في المستقبل على الاسهام بدور حضارى كبير . لكن مايقص العالم العربى هو الوحدة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . وأنا حزين للعجز الذى يظهره العالم العربى أمام قضية مثل البوسنة والمهرسك . وأنا أرى أن الجمهوريات الاسلامية التى تمخضت عن انهيار الاتحاد السوفيتى ستعطى قوة للعالم العربى لكن لتتفق أولاً على أن اللحمة الرئيسية لهذا العالم هى اللغة العربية . ولنأخذ العبرة من التاريخ ، فقد كانت ألمانيا منذ قرنين مجزأة إلى نحو ٣٥٠ إمارة وولاية مستقلة . وقد ظهر مفكر عظيم يدعى « فشته » وضع مؤلفاً أسماه « حديث إلى الأمة الألمانية » قال فيه ان الرباط الذى يصل بين كل أبناء هذا الشعب هو اللغة الألمانية ، فالمواطن الألمانى هو الذى يتحدث اللغة الألمانية .

وقد التقط هذا الخيط المستشار « بسمارك » الذى قام — بعد ذلك بستين عاماً — بتوحيد المانيا ، فأصبحت ماردا في قلب أوروبا . وإذا كان من الصعب أن نقارن بين الوضع في العالم العربى والوضع في الامبراطورية الألمانية الممزقة في بداية القرن التاسع عشر ، فإن هناك تشابهاً هاماً هو وحدة اللغة التى تعنى وحدة الثقافة والفكر والرؤى . أنا مقتنع — والكلام مازال للاستراتيجى الفرنسى الجنرال جالوا — بأن العرب هم الطرف الوحيد القادر على كسر هذه الحلقة المفرغة التى ستوصلنا إلى نظام عالمى جديد يقوم — مثل سابقه — على السيطرة على ثروات العالم . إن لدى العرب كافة الامكانيات للقيام بهذا الدور ، لكن ينقصهم روح الوحدة والاقتناع بالمصالح المشتركة للعالم العربى .

انتهى حديث الاستراتيجى الفرنسى عن أهمية اللغة العربية في صنع عالم عربى موحد يمكن أن يحطم سطوة النظام العالمى الجديد .

رؤية مسيحية للثقافة الإسلامية :

يشاء الله أن ينشر الأهرام في نفس العدد ملاحظات أبدتها المواطن المصرى الدكتور صموئيل عبد الملك على الأخطاء « النحوية » التى تظهر في الصحف ، ثم يقول : « ليت المواطنين يراعون قواعد لغتنا الجميلة ،

ويكتبون ويتكلمون ويقرأون صوابها ، فاللغة العربية — لغة القرآن الكريم ! — تراث وثروة » .

وشرح هذا الكلام صدرى ، وأطلق لى عنان الخيال والأمل — وسط حجب الكتابة — فأصبحت أرى أمة العرب موحدة ، ساعية إلى آفاق حضارية مجيدة ، تحت راية عربية واحدة يحمل لواءها مواطنون عرب مثل صموئيل عبد الملك ، وجمال أسعد ، وموريس عريان ، وفكتور سحاب ، وحليم تادرس ، إلى جوار مواطنهم المسلمين .

وتحت عنوان « من نحن ؟ » كتب الدكتور رفيق حبيب يقول : « أصبح البحث عن هوية أمرا حرجا للغاية ، يضعنا في بؤرة اليأس . فأول خطوات التقدم تبدأ من معرفة الذات . ونحن نقضى سنوات وسنوات بحثا عن هويتنا . ولكن ألسنا في النهاية ، وبدون أى جدل عقيم ، أبناء تلك الحضارة وذلك التراث المصرى العربى الإسلامى ؟ وإذا اختلفنا حول المسميات فسنظل أبناء تاريخنا ، ولن نكون أبناء أى تاريخ آخر .

ثم يشير الدكتور رفيق إلى محاولة البعض منا التعلق بالحضارة الغربية ، وتقليد الغربيين فيقول : « إذا نظرنا حولنا الآن فسنعرف أننا نعيش الاغتراب الكامل .. ، إن الأرض والألوان والأشكال من حولنا لاتعبر عنا ، ولا عن أحد ، بل هى مزيج عقيم من التقليد الأعمى . ولكن ألم نعرف بعد أن تقليد الآخر ، وإن كان متقدما لايحقق لنا التقدم ؟ فلا يمكن أن تقلد شخصا فتحقق نفس نجاحه ، لأن نجاحه ماهو إلا إبداع يلائمه .. كان علينا أن نفهم أن قوة الآخر ليست بالضرورة قوى ، والعكس صحيح . فنقاط القوة لدينا نقاط ضعف بالنسبة للغرب . إن التركيبة الاجتماعية المتميزة التى تمتد جذورها لدينا عبر تاريخ سابق ، لايمكن أن تحقق للغرب ماحقق من تقدم ، ولكنها حققت لنا فى الماضى الكثير ، وهى التى ستحقق لنا فى المستقبل تقدما الذى نحلم به (١) .

ونشر الأهرام لأحد كتابنا المسلمين مقالا بعنوان « وا أزهره » عن

(١) من مقال للدكتور رفيق حبيب بجريدة الشعب المصرية عدد ٢١ / ٨ / ١٩٩٢ .

تدهور حال التعليم في الأزهر الشريف . وردّ عليه الأستاذ حلم تادرس أحد كبار رجال التعليم في مصر بمقال أيضا . ولأن الأستاذ تادرس مثقف مخلص لعمله ووطنه ، فقد أبدى في مقاله غيرة شديدة على الأزهر لا يمكن أن يبدى أكثر منها عالم إسلامي جليل . كتب الأستاذ حلم تادرس في مقدمة مقاله يقول : « استجابة لطلبك الغوث والانقاذ ، وسؤالك : أين أزهرنا ؟ ، وهو أزهرنا أيضا نحن المسيحيين أقباط مصر ، وليس أزهر المسلمين فحسب .

لأنه أولا يجمع لحماية الدين الاسلامي الذي كفّل لنا نحن المسيحيين حرية العقيدة والاعتقاد ، وهما اسمى ما يملك الانسان ، ووضع قوله تعالى « لا إكراه في الدين » عنوانا لمعاملته مع غير المسلمين ، ولأن من فوق منبره — ثانياً — خطب أقباط مصر عام ١٩١٩ ضد الاستعمار الانجليزي وهو — ثالثاً — الذي خضع له الحكام والأمراء ، وترغم الحركات السياسية الكبرى ، وكان حريا على الظلم والطغيان ، وعونا على الحكام الظالمين حتى ٢٣ يوليو . وهو — رابعا — الذي حفظ مابقى من التراث العلمي والعربي ، وقاوم عوامل الانحلال والضعف والعجمة خلال العهد العثماني . وهو — خامسا — ومن قبل ومن بعد جامعة كبرى للتربية والتعليم الدينيين .

ويمضي الأستاذ تادرس قائلاً : « أقول استجابة لطلبك الغوث والانقاذ ، ولأن الأزهر هو أزهر جميع المصريين : أشاركك استغاثتك ، واعتذر عن الانقاذ طالما بقي « قانون تطوير الأزهر » الصادر عام ١٩٦١ ، وهو القانون الذي بمقتضاه تحول الأزهر الجامع والجامعة الإسلامية الكبرى ، إلى جامعة مدنية سائهة وممسوخة .. حتى كلية الدراسات الإسلامية غيروا اسمها قبل سنوات قليلة إلى « كلية الدراسات الانسانية » ، مع أن الدراسات الإسلامية أشمل وأعم من الدراسات الانسانية » (١) .



(١) من قال للأستاذ حلم تادرس في جريدة الأهرام يوم ٢٨ / ٩ / ١٩٨٩ .

الأقباط والإسلاميون

يطلق اسم « الإسلاميون » فى القاموس السياسى المعاصر على من يؤمنون بأن الإسلام ليس عقيدة وعبادات فحسب ، وإنما هو يملك شريعة تنتظم أمور الحياة كلها ، سياسية واقتصادية واجتماعية . وهم بهذا ، يقدمون الإسلام كمشروع حضارى للمستقبل ، بدلا عن المشروع الحضارى الغربى الذى يعتقدون أنه أفلس ، وأن نجمه آخذ فى الأفول بعد أن عملت فيه عوامل الانحلال عملها ، بسبب قيامه على أساس من المادة وحدها ، وعدم احتفائه بنواحي الروح . كما أن الإسلاميين يطرحون — دعما لفكرتهم — مقولة ان المشروع الغربى ولد فى ظروف وأحوال غريبة عنا ، وإذا كان قد صلح لأهل أوروبا وأمريكا فإنه لا يصلح للشرق العربى . وبعض المفكرين المسيحيين يؤيدون الإسلاميين فى هذا الطرح كما سبق أن ذكرنا فى صفحات سابقة ، وكما سنذكر فيما بعد .

ومن طبائع الأمور — لاسيما بعد أن تلوث مجرى حياتنا بكثير من الكدر — أن يلقى مشروع الإسلاميين معارضة من كثيرين من الأقباط ، وأن يثير بينهم قدرا من القلق . ومن سوء الحظ أن فصائل من الإسلاميين لم يعملوا على تبديد هذا القلق ، بل ربما زادوه ، بفعل أفكارهم المتمتة ، وغير الرشيدة ، والبعيدة عن النبع الصافى للإسلام . إلا أن فصائل أخرى ممن أوتوا فهما دقيقا واعيا للإسلام ، لم يألوا جهدا فى توضيح فكرهم ، وشرح مقاصد الشريعة الإسلامية البعيدة عن أى حيف .

وقد شرع المفكرون الإسلاميون المستنيرون — فى فيض من الدراسات والمقالات والكتب — فى توضيح أمور كثيرة فى الدين الإسلامى ، تزيل الغبار العالق ، وتمحو دواعى القلق والخوف . فهم بداية يقررون أن الدين الإسلامى دين رحمة وسماحة ، كما أنه دين حرية إنسانية بلغت

حدودا لم يعرفها العالم قبل الإسلام . ومن ثم لا يمكن لفرد أو جماعة غير مسلمة أن تضار بتطبيق الشريعة الإسلامية . ويستند الإسلاميون في دعواهم هذه إلى آيات محكمة من القرآن الكريم ، وإلى أحاديث صحيحة للنبي الإسلام ، كما يستندون إلى وقائع ثابتة في التاريخ الإسلامى على اختلاف مراحله . فهم يقولون :

من الثابت أن الإسلام دين رحمة شاملة ، ففى القرآن الكريم يقول الله سبحانه لنبيه ﷺ « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . ولم يقل سبحانه رحمة للمسلمين أو المؤمنين ، وإنما رحمة للخلق كافة . وحديث النبي محمد ﷺ الذى يقول : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » بالغ الدلالة على مدى احتفاء الدين الإسلامى بالرحمة — حتى على الحيوان .

وفى حديث آخر يقول نبي الإسلام « فى كل ذى كبد رطبة أجر » . أى أن الانسان يؤجر من الله إذا مارحم أى كائن حتى إنسانا أو حيوانا أو طيرا .. ، وقولة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب « لو عثرت بغلة بشاطئ الفرات لسئلت عنها أمام الله : لم لم تسو لها الطريق » واضحة الدلالة على مدى الرحمة التى يستشعرها الحاكم الإسلامى ، فضلا عن دلالتها السياسية فى مدى مسئولية الحاكم عن كل مايجرى على أرض بلاده .

أفدين هذا شأنه من الرحمة ، يمكن أن يخاف من تطبيق شريعته على أخوة مواطنين ؟ فضلا عن هذا ، فثابت فى القرآن والسنة ، وسيرة الخلفاء الراشدين ومن سلك مسلكهم من الحكام المسلمين ، وفى أقوال أئمة الفقه الإسلامى أيضا ، أن أهل الكتاب لاسيما النصارى لهم وضع متميز على سائر غير المسلمين .

ولقد جرى المصطلح الفقهى على تسمية أهل الكتاب بالذميين . وكلمة « ذمى » لغةً وفقها لا توحى بأى نقص ، بل تعنى أن صاحبها « أى الذمى » يدخل فى ذمة المسلمين وضمائرهم وأمانتهم فتجب رعايته واحترامه وعدم إيذائه . ومن الطبيعى أن يهتم الإسلام — وهو دين عدل وإنصاف — بالذميين حين يكونون أقلية بين أغلبية مسلمين . فهنا تكون مظنة الايذاء وعدم

الانصاف واردة . ولذلك لزمّت التوصية بل التشديد على الرحمة والانصاف .
ويذكر التاريخ أن آخر عبارة قالها عمر بن الخطاب وهو مطعون على شفا
الموت ، هى توصية من يأتى بعده بالذمين خيرا . حتى فى هذا الظرف
العصيب ، وجروحه تشخب دما ، وهو يجهد نفسه فى أمر جلل إلا وهو
توجيه أصحابه إلى مايفعلون فى اختيار خلفه ، حرص عمر على التوصية
بالذمين . ومن قبل عمر قال محمد ﷺ « من آذى ذميا فقد آذانى » .

أما عن قيمة « الحرية » فى الإسلام ، فقد وردت فى القرآن الكريم
وأحاديث نبي الإسلام ﷺ وفتاوى الفقهاء أقوال رائعة تقدر « حرية
الانسان » . لقد أفتى ابن عابدين فى « الحاشية » أنه إذا ماختلف مسلم وذمى
على طفل ، فقرر المسلم أن الطفل عبد له ، وقرر الذمى أنه ابن له ، حُكم
لصالح الأخير ، لأن تنشئة الطفل على الحرية — وإن كانت على غير دين
الإسلام — مقدّمة على تنشئته على العبودية ، وإن كانت على دين الإسلام !

وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز زادت حصيلة الزكاة حتى غطت
جميع أوجه صرفها ثم فاضت ، فبعث والى تونس يسأل الخليفة عما يفعله بما
تبقى من أموال الزكاة ، فطلب منه عمر أن يشتري عبدا ثم يُعتقهم .

والآيات القرآنية كثيرة فى الحث على إعتاق العقيد ، وإطلاقهم إلى رحاب
الحرية ، واعتبار ذلك تكفيرا عن خطايا المسلم ، وقربة إلى الله ، تماما كالصلاة
والصوم .

ومن فرط احتفاء الاسلام « بالإنسان » — أى إنسان — أنه لم يقصر
رعايته على حريته ، بل تجاوزها إلى « الكرامة » التى يجب أن تتوافر له
وتصان . يقول الأستاذ فهمى هويدى : « كل مخلوق له فى الإسلام حصانة
وحرمة .. فالروح التى تسرى فى كل كائن ، والتى هى من أمر ربي بنص
القرآن الكريم لها كرامتها التى لاينبغى أن تُهدر بغير حق » (١) . ويسرد
نصوصا كثيرة تثبت أن الكرامة التى يصونها الإسلام للانسان لاتتعلق بالمسلم
وحده ، وإنما هى لسائر البشر . من ذلك واقعة قيام النبي محمد ﷺ عندما

(١) فهمى هويدى — مواطنون لا ذميون ص ٧٩ .

مرت به جنازة يهودى ، فلما نبهه جلساؤه إلى أنه يهودى قال : أليست نفسا ؟
أليس إنسانا من خلق الله وصنعه ؟

وأوضح الأستاذ فهمى هويدى أن المساواة التى قررتها نصوص الدين
الإسلامى وتقارير فقهاءه بين المسلمين وغير المسلمين ، لا تقتصر على الحقوق
المادية ، بل تتعداها إلى الحرمات والكرامات ، وقال إن الفقهاء سجلوا
« وجوب كف الأذى عن غير المسلم ، وتحريم غيبته ! كالمسلم » (١) .

وبهذا يكون الإسلام قد منح غير المسلمين حقوقا أدبية تتجاوز الحقوق
المدنية ، وأدخلهم مع مواطنيهم المسلمين فى حماية الضمير اليقظ والخلق الرفيع .
أما « حرية العقيدة » لغير المسلمين ، فقد حسمها القرآن الكريم بنصوص
صريحة قاطعة فى آيات عديدة منها :

— ﴿ لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي ﴾ سورة البقرة —
الآية : ٢٥٦ .

ويوجه الله سبحانه الخطاب إلى رسوله فيقول :

﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾ سورة الغاشية —
الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين ﴾ سورة يونس الآية ٩٩ .

﴿ ... فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ ، والله
بصير بالعباد ﴾ سورة آل عمران — الآية : ٢٠ .

﴿ ماعلى الرسول إلاّ البلاغ .. ﴾ سورة المائدة — الآية : ٩٩ .

﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم
بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ سورة الزمر — الآية : ٤٦ .

فالإسلام إذن لا يقر لأحد من المسلمين بدءا بالنبي ﷺ بحق إكراه

(١) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ١١٤ .

الناس على الإسلام . ويحدد القرآن مهمة الرسول بتبليغ رسالته ، ومن لا يستجيب له فحكمه إلى الله يوم الحساب .

ولقد تدعمت حرية العقيدة لغير المسلمين بتوكيد مساواتهم في كافة الحقوق الجنائية والمدنية مع المسلمين ، فقد ثبت مثلاً عن الامام علي بن أبي طالب قوله : « من كان له ذمتنا قدمه كدمنا ، وديته كديتنا » . كما أفتى الفقيه المصرى الكبير الليث بن سعد في شأن الذميين إذا وقعوا أسرى في أيدي العدو بقوله : « أرى أن يفدوهم من بيت المال » . ومن التطبيقات التي مارست فيها الدولة الإسلامية المسئولية الكاملة عن حماية أهل الذمة ما حدث حين أراد أمير التتار « قتلوا شاه » إطلاق سراح الأسرى المسلمين دون الذميين ، الأمر الذى رفضه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقال للأمير التتارى : « لا بد من افتكاك جميع من لديك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة (أى المسلمين) ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم » . وأصر المسلمون على هذا الموقف حتى أطلق سراح الجميع (١) .

ومن الاجتهادات الفقهية اللافتة للنظر ، والتي تكشف عن حساسية باللغة في مراعاة مشاعر أهل الذمة ، وشدة الحرص على إنصافهم ما قال به الأحناف من وجوب تطبيق أحكام أهل الذمة على وصاياهم . ومن ثم أفتى هذا المذهب بصحة الوصية المتضمنة عملاً مشروعاً بحسب ديانتهم ، ولو كان هذا العمل محرماً عند المسلمين . كما أفتى بطلان الوصية المتضمنة معصية حسب اعتقادهم ، ولو كان هذا العمل قرينة عند المسلمين .. مثلاً ، لو أوصى ذمى بأن يجعل داره مسجداً ، أو أوصى لمسلم بالحج فوصيته باطلة . أما لو أوصى بأن يجعل داره كنيسة أو مسلخاً لذبح الخنازير ، فالوصية صحيحة (٢) .

إلى هذا الحد بلغ حرص فقهاء المسلمين على رعاية حقوق أهل الكتاب . ولهذا لم يكن غريباً أن تكون الدولة الإسلامية على اختلاف العصور عنصر جذب لغير المسلمين لاسيما أولئك الذين كانوا يلقون الاضطهاد في أوروبا على أيدي أبناء دينهم لمجرد اختلاف المذهب . وللأسف ، فكثيراً ما استغل

(١) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ١١٦ .

أعداء الدولة الإسلامية جو الحرية والسماحة هذا في الكيد لها . فالتاريخ يروى أن حكام الدولة البيزنطية استغلوا كنائس الشام بعد أن خضع للحكم الإسلامي ، واستعملوا بعض قساوسة تلك الكنائس وغيرهم جواسيس على النظام الإسلامي الحاكم . وقد كشف عن هذا مطران بيروت الماروني يوسف الدبس في أواخر القرن الماضي ، وحذر مواطنيه الموارنة « من التهور في معاداة السلطة القائمة فيهم لحساب ذوى الأغراض البعيدين عنهم » (١) .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من أسباب انهيار دولة الخلافة الإسلامية العثمانية استغلال الجواسيس والمتآمرين لمناخ الحرية الدينية ، ونجاح كثيرين منهم في الوصول إلى مناصب حساسة في عاصمة الدولة العثمانية ، فاستطاعوا — إلى جانب عوامل أخرى — تقويض أركان الدولة وإسقاط الخلافة الإسلامية ، وتفكيك أقطارها لحساب دول أوروبا . ويقرر هؤلاء الباحثون أن تاريخ العصر الوسيط لم يشهد قط تلك الحرية لأتباع الديانات الأخرى إلا في الدولة الإسلامية . فلم تكن أية دولة أوروبية تسمح بأدنى قدر من الحرية لمخالفها في الدين أو المذهب . بل كثيرا ما كانت تستأصل شأفتهم ، وتحيرهم بين التحول عن دينهم إلى المسيحية ، أو القتل ، أو الخروج من البلاد كما حدث في الأندلس .

وقد اهتم الباحثون المسلمون بعرض موقف الاسلام منذ بدايته الأولى من النصارى على وجه الخصوص ، لما لهم من وضع متميز على سائر أصحاب الديانات الأخرى . وذكروا قصة وفد نصارى الحبشة الذين وفدوا على رسول الله ﷺ في المدينة ، فأنزلهم في مسجده ، وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم حيث كان يحمل إليهم بنفسه الطعام من بيته ، ولما أراد أصحابه أن يقوموا عنه بهذا العبء أبى وقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين (في الحبشة) ، فأحب أن أكرمهم بنفسى .

كذلك روى أن وفدا من نصارى نجران جاء إلى المدينة ، فأنزلهم رسول الله ﷺ في المسجد ، وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون في جانب

(١) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . وتكرر ذلك المشهد الرائع في كنيسة يوحنا الكبرى في دمشق ، فقد رضى المسيحيون عند الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ، ورضى المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم « فكنت ترى في وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين ، هؤلاء يتجهون إلى القبلة ، وأولئك يتجهون إلى الشرق (١) .

ولم تكن احتفالات وأعياد غير المسلمين تتم بمعزل عن المسلمين .. فمنذ العهد الأموي كانت للنصارى احتفالاتهم العامة في الشوارع ، تتقدمها الصليبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية . وقد دخل البطريك ميخائيل مدينة الإسكندرية (في عهد هشام بن عبد الملك) في احتفال رائع ، وبين يديه الشموع والصليبان والأنجيل ، والكهنة يصيحون : قد أرسل الرب إلينا الراعى المأمون الذى هو مرقس الجديد .

« وجزت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى في موكب كبير ، وبين أيديهم الصليب ، وكان ذلك في يوم عيد الفصح » (٢) .

وجاء في العهد الذى أعطاه خالد بن الوليد للنصارى من أهل « عانات » أن لهم الحق في أن يضربوا نواقيسهم في أى ساعة شاءوا من ليل أو نهار ، إلا في أوقات الصلوات (حتى لا يشوشوا على المسلمين في صلاتهم) ، كما لهم الحق في أن يخرجوا بصليبانهم في أيام عيدهم (٣) .



(١) د. مصطفى السباعى — من روائع حضارتنا ص ٨٤ — ٨٧ .

(٢) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ٦٧ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٤٦ .

الفصل السادس

المسيحيون وتطبيق الشريعة الإسلامية

الفصل السادس

المسيحيون وتطبيق الشريعة الإسلامية

عندما يطرح المفكرون الإسلاميون مشروعهم بتطبيق الشريعة الإسلامية يسوقون حشدا من الأدلة القاطعة على أن تطبيق الشريعة لا يمكن أن يلحق ضررا بغير المسلمين في الأقطار الإسلامية . ويؤكدون أن حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي هي حقوق ناشئة أصلا من نصوص القرآن والسنة ، ولهذا أصبحت لها قداسة وحصانة عقيدية لا يجوز انتهاكها . فمثلا لا يمكن — دينا — أن تتأثر تلك الحقوق بسوء معاملة الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة .. بحجة الأخذ بقاعدة المعاملة بالمثل ، لأن هذه القاعدة تقف ولا يعمل بها مادامت تتضمن ظلما وانتقاصا من حقوق غير المسلم التي قررتها الشريعة الإسلامية التي من قواعدها الآية القرآنية ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١) .

ويقول دعاة تطبيق الشريعة ان الأديان السماوية كلها خرجت من مشكاة واحدة ، فهي تقوم أولا على العبودية لله وحده ، وثانيا على دعائم الحرية والعدل والمساواة . وهذه الدعائم ذاتها من مقاصد الشريعة الإسلامية كما يقرر علماء الأصول الإسلاميون . ويقولون ان الديانة المسيحية انتهجت منذ بدايتها نهجا محددًا قصر مجالها على العبادات والفضائل ، وفصلت بين شئون الدنيا التي رأت ترك تبعثها كاملة للحاكم الدنيوي ، وبين شئون العقيدة . وحكمت بأن ملكوت الله إنما هو في السماء وليس على الأرض ، وإن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . أى أن المسيحية لم تطرح مشروعا دينيا للحكم في الدنيا .

(١) د. عبد الكريم زيدان — بحث مقدم إلى مؤتمر حقوق الانسان عقد في جامعة الكويت

في ديسمبر سنة ١٩٨٠ .

ويسوق الإسلاميون نصوصا مسيحية في هذا السياق تدعم رأيهم فيقولون : « أن الحكم في ظل العقيدة النصرانية هو من شأن رجال الدولة ، وليس لرجال الدين المسيحيين فيه من حق ، ولا للمسيحية فيه برنامج محدد » لأن من ينهاتهم عن محبة العالم وما فيه لا يقرر لهم معاملاته » ، ولأن المسيح رفض حتى أن يقسم للرجل ميراثه مع أخيه . وقامت العلاقة بين الكنيسة والسلطة على هذا المبدأ الذي قرره الأنبا أنثاسيوس « ليس لرجال الدين أن يمارسوا حكما أرضيا ، ولا للامبراطور أن يقوم بعمل كنسى »^(١) .

ويتساءل الإسلاميون : إذا كان الأمر كما رأينا فماذا يضير المسيحيين في المشرق العربي أن يطرح مواطنوهم المسلمون مشروعا إسلاميا للحكم في الدنيا ، يقوم على أساس العبودية لله وحده ، وتحقيق الحرية والعدل والمساواة بين الناس ، في وجه مشروع الحضارة الغربية التي تخلت تماما عن الدين — كل دين — وجعلت المادة أساس توجهاتها ، والسيطرة على الشعوب المستضعفة غايتها ؟

وللحق أن المفكرين الإسلاميين لم يدخروا وسعا في طرح كم هائل من الأدلة الدينية والعقلية على أن المسيحيين وغير المسلمين عموما لا يضارون بتطبيق الشريعة الإسلامية ، لا في دينهم ولا في حقوقهم كمواطنين .

أفتى العلامة الهندي أبو الأعلى المودودي بما استقر عليه الرأي في الفقه الإسلامي من أنه إذا أتلف أحد من المسلمين خمر الذمي أو خنزيره كان عليه غُرمه (أى دفع ثمنه) . ويقرر الأستاذ فهمي هويدي أن الأمر بالقتال في الإسلام هو « لدفع الاعتداء والظلم ، ولإستتباب الأمن . وهو لحماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الاكراه عليها .. يشهد على ذلك قوله تعالى فيما تلا مباشرة الأذن الوارد بالقتال ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ . ومعنى ذلك أن المسلمين مُكَلَّفُونَ بالقتال دفاعا عن كنائس المسيحيين ومعابد اليهود ، لأن اسم الله جلّ جلاله يذكر فيها جميعا . ويلاحظ الأستاذ هويدي معنى دقيقا

(١) محمد جلال كشك — بحث في جريدة « الشعب » المصرية في ٣٠ / ٦ / ١٩٩٢ .

حين يقول : « ويلاحظ في هذه الآية أن أماكن العبادة لغير المسلمين وردت في الآية قبل مساجد المسلمين^(١) . مأرّوع ما يهتدى إليه المفكر حين يصفو ذهنه وتسمو غايته .

والواقع أن فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية لا تلقى معارضة من بعض الأقباط فحسب ، وإنما قد تكون المعارضة أشد من قبل من يسمون بالعلمانيين المسلمين ، وهؤلاء دوافعهم شتى ، فبعضهم — وعلى الأخص القرييون من مواقع السلطة والثروة — يعتقدون أن تطبيق الشريعة بما يستتبعه من وضع الجميع — حكاما ومحكومين — على جادة الاستقامة والطهارة والمساءلة سيرهقهم من أمرهم عسرا . والبعض الآخر ممن لازالوا يؤمنون بالماركسية ، يضمرون عداوة تقليدية للإسلام ويعتبرونه الدّ خصومهم ، والعائق الأكبر لانتشار فكرهم وسط جماهير الأمة الإسلامية .

والبعض الثالث من ذوى الثقافة الغربية ، الذين لم يدرسوا الإسلام دراسة جيدة ، يحملون مخاوف من عواقب الحكم الإسلامى . وتلوح في أذهانهم صور ترددت في تاريخ العصور الوسطى في أوروبا عن الحكومة « الثيوقراطية » حيث كان الملوك يحكمون بسلطة « الحق الإلهى » الذى كان يضمن لهم ذاتا مصونة لا تمس ، ويُضفى على قراراتهم عصمة وحصانة — مهما تكن تلك القرارات ظالمة أو غاشمة ، ولا يملك الشعب إزاءها حق نقد أو تعديل .

ولكن من يدرس تاريخ الدولة الإسلامية وعلى الأخص في صدر الإسلام ، يعلم تماما إن الحكم بمقتضى « الحق الإلهى » ليس له وجود في تاريخ الإسلام . حتى نبي الإسلام الذى كان يتنزل عليه الوحي ، لم يستشعر قط أنه فوق الناس . جاءه أعرابى ذات يوم يسأله في شأن من شئون الدين فأخذ الأعرابى من مهابة رسول الله وأصابته رعدة ، فما كان من النبى ﷺ إلا أن ربت على كتف الأعرابى وقال له : هوّن عليك ، فما أنا بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وكان عليه الصلاة والسلام عندما يخرج مع أصحابه في سفر ، ويهمون

(١) فهمى هويدى — مواطنون لا ذميون ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

بطهى الطعام ، يصبر على مشاركتهم ويقول « اجمع لكم الخطب ، فإن الله يكره أن يتميز المرء على إخوانه » . ومعروف من سيرته أنه كان يخرج إلى السوق ، ويحمل حاجياته في طرف ثوبه ، ويحلب الشاة ، ويكنس داره . فهل مثل هذا السلوك يمكن أن يشابه سلوك الأباطرة وبابوات أوروبا الذين حكموا « بالحق الإلهي » ؟

ولم يكن هذا السلوك مجرد « تواضع » من حاكم عظيم ، بل كان التزاما بنصوص قرآنية ، تأمر نبي الإسلام بأن يبين للناس أنه مجرد بشر مبلغ لرسالة ، وأنه ليس وسيطا بين الله والناس ، وأنه لا يستطيع أن يجلب لهم النفع أو الضرر . يقول له الله : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الأعراف : ١٨٨ ، ويقول أيضا : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ، وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ الأحقاف : ٩ ، ويقول له : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ الغاشية : ٢٢ .

وعلى هذا الهدى سار الخلفاء الراشدون ، بل جميع الأمراء والولاة الذين التزموا بسنة رسول الله . أما من حاد منهم عنها ، فلا يمكن أن يكون حجة على الدين في النظر الصحيح ، بل تكون الأمة هي المسئولة عن انحرافه لأنها تقاعست عن تقويمه وإرجاعه إلى الجادة .

عندما بويع الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، كان أول مقالته في خطبته : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فاعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

ومعروفة هي جاذبة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، عندما قاطعه أحد عامة المسلمين وهو يخطب قائلاً له : « لا سمع ولا طاعة لك يا عمر ! » ، لجرد أن الرجل ظن أن الخليفة تميز على سائر المسلمين وأخذ من بيت المال قطعة قماش أطول قليلاً مما أخذه غيره . وكان مما قاله الرجل لعمر في هذا الموقف : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، ولم يغضب عمر ، وهو المعروف بشدته ، وإنما رد على الرجل قائلاً : « الحمد لله الذي أوجد في أمة محمد من يُقوم اعوجاج عمر » ! . فهل هؤلاء حكام « بالحق الإلهي » ؟ .

يقول الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه : « نظام الحكم في الإسلام » : ليس الخليفة أو الامام إلا رجلا اختارته الأمة ليكون ممثلا لها ، يتولى الاشراف على أمورها وتدير شؤونها . ومن ثم يكون عليها واجب تقديم النصيحة له فيما ينبغي النصيحة فيه ، وواجب التوجيه والتقويم ، بل ان لها أيضا عزله ان وجد ما يوجب العزل ، كما هو الأمر بالنسبة للموكل مع وكيله النائب عنه .

« ومن أجل هذا ، لا يعرف الإسلام للخليفة مركزا خاصا في الأمة ، نعني مركزا يحميه من النصيح والتوجيه ويعفيه من بعض ما يكون على أبناء الأمة من واجبات .. ، الخليفة إذن في نظر الإسلام ليس له أى صفات من صفات الألوهية ولو من بعيد ، وليس مقدسا ولا معصوما في نظر المسلمين ، وليس له الحق وحده في بيان الدين وتفسير نصوصه ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الأمة بدينه وعدالته ، فولته أمورها يديرها بمقتضى الشريعة .

ثم ينقل الدكتور محمد يوسف موسى عن الامام محمد عبده قوله : « الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة .. هو على هذا لا يخصه الدين بمزية في فهم الكتاب والعلم بالأحكام ، ولا يرتفع به إلى منزلة خاصة ، بل هو وسائر طلاب العلم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم .

ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انخراف عن النهج أقاموه عليه ، وإذا أعوج قومه بالنصيحة والإعذار إليه .. فالأمة هي التي تنصبه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه .. وليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر ، وهي سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها أدناهم » . انتهى كلام الامام الشيخ محمد عبده^(١) .

(١) د. محمد يوسف موسى — نظام الحكم في الاسلام — الطبعة الثانية ص ٨٢ ، ٨٣ .

وعلى درب الشيخ محمد عبده رائد حركة التنوير الإسلامى ، سار المفكرون المعاصرون ، وخرج بعضهم باجتهادات هامة مفصلة في مسألة مشاركة غير المسلمين في مناصب الحكم على اختلافها في الدولة الإسلامية . يقول الدكتور اسماعيل الفاروق استاذ علم الأديان المقارن بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة « ان غير المسلمين يستطيعون أن يعملوا في أى هيئة حكومية بما في ذلك الدفاع عن الدولة الإسلامية(١) .

ولا يرى الدكتور فتحى عثمان مانعا شرعيا يحول دون تولى غير المسلم القضاء حتى الجنائى منه ، إذ يلاحظ أن غالب الأحكام الجنائية هى من باب التعزير الذى تقرره السلطة التشريعية ، أو يترك في نطاق ما للقاضى من تقدير العقوبات . ويقول : « إن الحدود المنصوص عليها شرعا معدودة ، ويمكن أن تكون لها دوائر خاصة مثلما هو الحال في دوائر الجنايات في كثير من الدول الآن . ويحسن أن يكون رئيسها وأغلب أعضائها في الدولة الإسلامية من المسلمين ، ولا بأس أن يكون أحد أعضائها غير مسلم . ومن الطبيعى أن يكون قاضى الأحوال الشخصية للمسلمين مسلما ، ولغير المسلمين واحدا من دينهم ومذهبهم(٢) .

وفميا يتعلق بالجيش يقول الدكتور فتحى عثمان : « إن الخدمة في القوات المسلحة واجب وحق ، وتكليف وتشريف . والمسلمون يرونها جهادا شرعيا في سبيل الله ، وغير المسلمين يعتبرونها دفاعا عن الوطن . ويسع الجميع ماوسع المسلمين وغيرهم في كتاب رسول الله ﷺ أثر هجرته إلى المدينة إذ جاء فيه « ... وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .. وإن اليهود ينفقون (في تكاليف الجيش) مع المؤمنين ، ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » إلى آخر « الصحيفة » التى كتبها رسول الله ﷺ عهدا

(١) د. اسماعيل الفاروق بحث عن حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٦ لعام ١٩٨١ ص ٢٥ .
(٢) بحث حول مراجعة الأحكام الفقهية الخاصة بوضع غير المسلمين — نشر في مجلة الأمان البيروتية في يونيو ١٩٧٩ .

وميثاقا بينه وبين الأنصار وسائر أهل يثرب ، يحدد حقوق الجميع وواجباتهم في السلم والحرب بحيث اعتبرها المؤرخون والمفكرون المعاصرون أول دستور في الإسلام ، وأدخلوا منها الكثير من الأحكام الشرعية في مجال السياسة والحكم .

وفيما يختص بمناصب الدولة العليا ، نود أن نوضح أولا أن هناك اعتقادا شائعا بأن نظام الحكم في الدولة الإسلامية مرتبط بالضرورة بنظام « الخلافة » ، وبشخص « خليفة » للمسلمين جميعا ، قد يسمى أحيانا « إماما » أو « أميراً للمؤمنين » . وهذا الاعتقاد لا أساس له من نص شرعى . وقد وجدت تلك الأسماء أو الألقاب نتيجة اجتهادات ، أو ظروف سياسية . وكل ماتفرضه الشريعة أن يكون لجماعة المسلمين حاكم ، أيا كان اسمه ، إماماً أو ملكاً أو أميراً ، أو رئيس جمهورية ، حتى لا ينفرد عقد المسلمين ، وحتى يوجد من يوجه الدولة ويقودها للدفاع عن أراضيها ودينها وحرمانها ، ويسوس الرعية ويفرض العدل ، وينشر العمران والرخاء .

والواقع أن القرآن والسنة لم يخوضا في شكل نظام الحكم في الدولة الإسلامية ، لا من حيث كيفية اختيار الحاكم ، أو نطاق سلطته ، أو مدة ولايته . دليل ذلك أن النبي ﷺ لم يعين من يخلفه . وإذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد أوصى بمبايعة عمر بن الخطاب خليفة من بعده ، فقد كان ذلك تقديرا شخصيا منه للظروف التي رآها تحيط بالمسلمين آنذاك ، فقد كانت الدولة الإسلامية مشتبكة في بداية حروب مع الفرس والروم ، فرأى ألا يترك المسلمين بلا أمير لفترة قد تقصر أو تطول في أيام حرجة . كما رأى أن عمر بتقواه وصلابته هو رجل الموقف . وأخيرا رأى أنه لا يوجد نص ديني ملزم في هذا الشأن ، فاجتهد في رأيه .

ثم إنه لم ينفرد بهذا الترشيح ، وإنما استشار فيه المهاجرين الأولين ، الذين شاركوه هذا الترشيح ، ثم عقدت لعمر البيعة العامة بعد وفاة الصديق .

كذلك عمر بن الخطاب ، لم يلزم نفسه بموقف الرسول عندما لم يعين خليفة له ، ولا بموقف أبى بكر حين رشح . وإنما اجتهد وأشار على أصحابه بمبايعة واحد من ستة رأى أنهم خير من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ وهم المهاجرون الأولون .

والخلاصة أن الدين الإسلامى لم يضع نصوصا وقواعد لنظام الحكم . وإنما الفقهاء هم الذين عالجوا ذلك الأمر فيما بعد بكثير من التفصيل ، وكانت لهم نظرات ثابتة فى كثير من الأحيان ، وإن تأثرت آراؤهم وأحكامهم دائما بالأحوال السياسية التى سادت عصرهم .

والدليل على عمق تفكير فقهاء المسلمين فى هذا الشأن الهام انهم عندما تناولوا الصفات التى يجب توافرها فى الحاكم الإسلامى ، ورتبوا تلك الصفات حسب أهميتها ، وضع معظمهم فى المقدمة الشجاعة والثبات والقدرة على اقتحام الملومات ، ثم صحة العقل والنفس والبدن . واشترط بعضهم الورع والتقوى ، ولكن آخرين اكتفوا من الحاكم بأداء الفرائض ، وترخص بعضهم فى ذلك حين اكتفوا من الحاكم بعدم الجهر بالمعاصى . ولكنهم أصرّوا على أن يتصف بالعدل ، وبالقوة فى ردع الظالمين .

وإذا كان فقهاء الإسلام القدامى لم يهتدوا إلى تفاصيل الحكم الديمقراطى التى اهتدى إليها مفكرو الغرب فيما بعد ، فإنهم — على قدر ظروف عصرهم العمرانية — وضعوا قاعدة قيام أهل الحل والعقد (وهم النخبة العاملة القوية القائمة بعاصمة الدولة) بترشيح الخليفة لجماهير المسلمين الذين لهم حق مبايعته بعد ذلك . ولم تكن ظروف العصر تسمح بأكثر من ذلك ، ولم تكن الانتخابات العامة الشاملة لجميع أرجاء البلاد لاختيار الحاكم أمرا ميسورا .

وعدم خوض القرآن والسنة فى مسائل نظام الحكم أمر يحسب للإسلام . فقد شاء الله تعالى ألا يقيد المسلمين على اختلاف العصور بنصوص جامدة ، وترك تلك الأمور لعقول المسلمين كى يراعوا ظروف العصر وظروف مجتمعهم فيما يختارونه من قواعد للحكم . ولكن القرآن والسنة حفلا ببيان مايجب أن يتصف به الحاكم من عدل وشرف ورحمة وشجاعة .

كما أوضحت السيرة العملية لنبيّ الإسلام ولخلفائه الراشدين إشارات عامة — ولكن واضحة تماما — عن حقوق الرعية إزاء الحاكم : متى يطيعونه ، ومتى ينتقدونه ويوجهونه ، ومتى يخرجون عليه .

لقد حدد الإسلام « الشورى » فلسفة للحكم ، وسبيلا لاختيار الأمة حاكمها ، وترك لها الاجتهاد فى النظم والآليات والمؤسسات .

وقبل أن نعود إلى مسألة موقف الإسلام من حق غير المسلمين في تولي وظائف الدولة العليا ، نود أن ننبه إلى أن ماسنطرحة من اجتهادات فقهية هو من قبيل التنظير والتأصيل لا أكثر . إذ أن الممارسة العملية في هذا الشأن قد حسمت الأمر في جميع الأقطار الإسلامية منذ قرون عديدة ، فقد تولى عديد من غير المسلمين مناصب الوزراء في مختلف العصور ، وعندما كانت الشريعة الإسلامية كاملة التطبيق . وفي مصر تولى إثنان من المسيحيين رئاسة الوزارة عندما كانت مصر جزءا من دولة الخلافة الإسلامية العثمانية ، هما نوبار باشا ، وبطرس غالى باشا . وكانت ولاية أولهما (نوبار) في عهد الخديو اسماعيل حين كانت السيادة على مصر خالصة لدولة الخلافة الإسلامية ، أى قبل الاحتلال البريطاني لمصر .

ثم نأتى إلى آراء الفقهاء . أورد الأستاذ فهمى هويدى في كتابه « مواطنون لا ذميون » اجتهادا في هذا الموضوع لقاضى القضاة أبو الحسن الماوردى البغدادي المتوفى عام ٤٥٠ هجرية في كتاب بعنوان « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » ، وفيه يطرح رؤية جديدة بالتأمل ، وإن كان عمرها حوالى ألف عام^(١) .

يخصص الماوردى الباب الأول من كتابه لعقد الإمامة — التى يعتبرها « موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا » ، الأمر الذى كان طبيعيا معه أن يشترط في الامام أن يكون مسلما . ثم يعقد فصلا بعد ذلك « في تقليد الوزارة » ويقول : « الوزارة على ضربين ، وزارة تفويض ، ووزارة تنفيذ .

ويعرف وزارة التفويض ، فهى « أن يستوزر الامام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه ، وإمضاءها على اجتهاده . وليس يمنع (شرعا) جواز هذه الوزارة . يدلل على ذلك بقوله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ﴾ . ويعقب على الآية بقوله : فإذا جاز ذلك (أى التفويض) في النبوة ، كان في الامامة أجوز .

(١) فهى هويدى — المرجع السابق ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وفى شروط تولى منصب وزير التفويض يرى الماوردى أن تعتبر فيه شروط الامامة نفسها — وأولها الإسلام — وإن أضاف شرطا فوق ماهو مشروط للامامة هو « أن يكون من أهل الكفاية » .

« وأما وزارة التنفيذ فسلطاتها وشروطها أقل .. وهذا الوزير وسط بين الامام وبين الرعايا والولاية (حكام الأقاليم) ، يؤدي عنه ما أمر به .. » . وبعد أن عدّد الماوردى سبعة شروط فى وزير التنفيذ ، أولها الأمانة ، وسابعها الا يكون من أهل الأهواء ، يقول : « ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة ، وان لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم .

ولكن الدكتور فتحى عثمان يعقب على ما أثاره الماوردى فى الأحكام السلطانية بخصوص « وزارة التفويض » فيقول : « فى أيامنا لاتعتقد وزارة التفويض لشخص واحد ، وإنما تنعقد لطبقة هى « مجلس الوزراء » يرأسها رئيس الوزراء . أو هى « الحكومة » ويرأسها رئيس الحكومة .. ومن ثم لا يكون هناك محذور فى تولى واحد أو أكثر منصب الوزارة من غير المسلمين ، فى ظل نظام برلمانى ، وبالنسبة للنظام الرئاسى وما إليه من الملكية التى يحتفظ فيها الملك بسلطة رئيس الحكومة ، فالأمر واضح فى جواز تولى غير المسلم أى منصب من مناصب الوزراء دون أى إشكال » .

أما منصب رئيس الدولة الإسلامية — أيا كان اسم هذا المنصب — فإن الاجماع ينعقد على عدم جواز إسناده لغير المسلم . وفى هذا يقول الدكتور فتحى عثمان : « والحق أن كثيرا مما يجوز ولا يجوز للأقليات توليه من المناصب ، يمكن الاستئناس فيه بسوابق العمل فى الدول المختلفة . فوجود الأقليات ليس مما تنفرد به دولة الإسلام . وتحديد مناصب قيادية معينة للغالبية ليس مما تنفرد به دولة الإسلام ، وإنما قد تكون لطبيعة الدولة الإسلامية وخصائصها آثار فى هذا المجال ، فلا يتصور مثلا أن يكون رؤساء الدولة والحكومة والسلطة التشريعية والمحكمة العليا فى الدولة الإسلامية من غير المسلمين (رغم أن ذلك حدث فى مصر الحديثة ثلاث مرات : عندما تولى نوبار باشا وهو مسيحي رئاسة الوزارة عام ١٨٧٨ ، كما تولى بطرس غالى باشا المنصب ذاته عام ١٩٠٨ ، وفى عام

١٩١٩ أسندت رئاسة الوزارة إلى قبطنى ثالث هو يوسف وهبة باشا) ، كما لايتصور أن يكون هؤلاء من المسلمين فى أية دولة علمانية ديموقراطية غربية ، بل من غير المسيحيين اتباع مذهب الغالبية بالذات فى أكثر الأحوال (فى الولايات المتحدة جرى العرف على انتخاب رئيس بروتستانتى ، ورئيس الوزراء فى بريطانيا بروتستانتى بالضرورة) .

فارس الخورى والشرعية الإسلامية :

فارس الخورى مسيحي سوري معاصر ، كان أستاذا فى كلية الحقوق فى دمشق ، ثم عميدا لها . تبوأ منصب رئاسة مجلس النواب فى سوريا ، ثم تولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات ، واعتذر عن رئاسة الجمهورية عندما عرضها عليه بالحاح وفد من قادة المسلمين فى سوريا ، وأقام اعتذاره على أساس احترامه للدستور السورى الذى اشترك هو نفسه فى النص فيه على أن يكون رئيس الدولة السورية مسلما .

درس فارس الخورى بحكم أستاذيته فى القانون الشرعية الاسلامية فأعجب بها إيماء أعجاب . وانعكس هذا الاعجاب على مؤلفاته ومقالاته فى القانون الدولى المقارن ، بل وظهر جليا قويا فى حياته السياسية الحافلة .

فى عهد الوحدة بين سوريا ومصر (١٩٥٨ — ١٩٦١) بعث فارس الخورى رسالة إلى المشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس فى دمشق يقترح عليه إسناد الحكم فى « الاقليم السورى » إلى الساسة الاسلاميين الذين يطالبون بتطبيق الشرعية ، كى يقيموا حكم القرآن والسنة فى الأمة ، على أن يكتفى هو (عبد الحكيم عامر نائب الرئيس) بالاشراف فقط . وعلل فارس الخورى اقتراحه بأن الاسلام هو أمل الناس من ناحية ، وإنه من ناحية أخرى إذا قورن بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية الأخرى فهو أفضلها . وقال الخورى فى رسالته ان المسيح عليه السلام لم بُشر إلى أى نظام اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى إلاّ إشارات عارضة داعية إلى الصفاء الروحى والتهذيب الوجدانى ، والرحمة واللين والتسامح ، تاركا القوانين والنظم والحدود إلى الدولة الرومانية الوثنية . فإذا كانت المسيحية — كما يقول فارس الخورى — قد قبلت النظم التى وضعها الوثنيون المشركون الرومان ، فلا ضير عليها ولا بأس أن

تقبل بالنظم والقوانين والحدود الإسلامية ، خاصة أن الاسلام يعترف بالمسيحية ديناً ، وبمسيى رسولا ونبياً ، وبالحواريين تلامذة قدسين . وأكد فارس الخورى فى رسالته لعبد الحكيم عامر أنه لا يتكلم فى هذا عن عاطفة أو جهل ، بل عن عقل وعلم وإدراك^(١) .

وفى أحد مجالسه الخاصة قال فارس الخورى للقيس البروتستانى داوود مترى : « أنا مسيحى ، ولكننى أجاهر بصراحة أن عندنا النظام الإسلامى ، وحيث اننا فى « الجمهورية العربية المتحدة » أكثرتنا الساحقة مسلمة ، فليس هناك ما يمنع من تطبيق المبادئ الإسلامية فى السياسة والحكم والاجتماع » . ردوا عليه فى مجلسه هذا : ولكن هناك بعض المسلمين أنفسهم لا يعتمدون بسهولة تطبيق النظام الإسلامى بسبب الأقليات الغير مسلمة من ناحية ، وبسبب موقف الشرق (الاتحاد السوفيتى) والغرب من ناحية أخرى .

ردّ عليهم فارس الخورى قائلاً : يمكن تطبيق الاسلام كنظام دون الاعلان عنه أنه إسلام ! كما يطبق حكام اليوم الشيوعية قائلين أنها اشتراكية إسلامية أو اشتراكية عربية . إن النظم الهدامة من الشرق أو الغرب تهدد كلا من المسيحية والاسلام معا ، ولا يمكن محاربة هذا كله إلا بالاسلام^(٢) .

وكان فارس الخورى يكرر دائماً فى مجالسه القول بأن مسيحية الغرب هى مجرد ادعاء . وتعصّبهم للمسيحية لم يمنعهم من تسليم مهد المسيح وقبره لليهود الذين صلبوه ، فى حين أن المسلمين على تنوع مذاهبهم ونزعاتهم أشدّ غيرة على مهد المسيح وقبره من المسيحيين الأوربيين .

وفى عام ١٩٥٤ عندما كان فارس الخورى رئيساً لمجلس النواب ، تقدم النائب الشيخ عبد الحميد الطباع بمشروع قانون لتطبيق الحدود الإسلامية فى الجنايات ، ولم يحظ المشروع بموافقة المجلس ، ولكن فارس الخورى أثنى على المشروع قائلاً : « إنه لو طبق لوفّر جانباً كبيراً من ميزانية الدولة يُنفق

(١) محمد الفرجانى — فارس الخورى ، طبعة بيروت عام ١٩٦٥ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) د. فهمى الشناوى — مجلة المختار الإسلامى — أكتوبر ١٩٨٩ .

على اعداد مهولة من رجال الشرطة ، والقضاة ، والمحاكم وما إليها ، إذ لن تكون هناك حاجة إلى معظم هؤلاء بمجرد أن تُقطع يد سارق ، وأن يرجم زان ، وأن يجلد شاهد زور ، وقال الخورى : فى العهد العثمانى — عندما كانت تطبق الشريعة — لم يكن فى سوريا سوى ثلاث محاكم شرعية تنظر كل أنواع القضايا ، ابتدائية وكنية واستئناف وأحوال شخصية . ومع ذلك كان قضاة ذلك العهد يجلسون فى المحاكم دون عمل تقريبا إذا لاترد إليهم قضية إلا فى النادر . وأردف الخورى قائلاً : « أما الآن فقد تدنت الأخلاق ، وانتشر الفساد وعدم الاكتراث ، لسبب وحيد هو أن عقوبات القانون المدنى غير زاجرة ، والمحامون يجدون الثغرات فى القانون ، والمتقاضون يتقنون فنون الاختلاق والادعاء .

وفى ٧ فبراير عام ١٩٥٩ نشر فارس الخورى تصريحاً أعاد فيه الدعوة إلى الحكم بالشريعة الاسلامية قائلاً : « لا حياة للعرب ، ولا قوة لهم بغير الاسلام .. هذا أمر مبدئى أومن به تماماً . وقد كنت فى هيئة الأمم المتحدة (مندوباً لسوريا) منسجماً تماماً مع وفد باكستان وغيره من الوفود الاسلامية ، وكان الباكستانيون يدافعون عن قضايانا نحن العرب بأشد من الروح التى يدافعون بها عن قضاياهم . إنهم يحبون العرب حباً عظيماً بل يقدرسونهم تقديساً . إن العالم الاسلامى فيه رصيد هائل من القوة المادية والمعنوية لنا نحن العرب . ومن الخطأ الفادح أن نترك هذا الرصيد يتبدد .

وقد علّق عميد كلية الشريعة فى دمشق فى ذلك الحين الأستاذ محمد المبارك على حماس فارس الخورى للشريعة بقوله : من العجيب أن يستهين أبناء الاسلام بأمر الاسلام ، ويعملون على إبعاده عن الحياة العملية ، فى حين يقف أعظم مسيحي معاصر فى الشرق العربى ويجاهر بضرورة الأخذ بالاسلام والعمل بشريعته .

يقول فارس الخورى : « تتميز الشريعة الاسلامية عن أى شريعة أو قانون بتقوى الله ، حتى فى الحروب والغزوات ، كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يقول : « أبعد جنودك عن منازل أهل الصلح والذمة ، لا يدخلها أحد من الجنود إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ (يؤذى) أحد منهم أهلها بشئ ، فإن لهم حرمة ، وإذا كنتم ابتليتم بالوفاء فانهم ابتلوا بالصبر ! » .. ويعلق

فارس الخورى على كتاب عمر بن الخطاب هذا بقوله : « تصور رئيس دولة منتصرة يحس بأن عدوه المغلوب مبتلى وصابر على الهزيمة ، فيأمر جنوده بالألّا يزيدوا من مرارة المهزومين بما يخذش حرمة بيوتهم ! » .

ويقول الخورى : « ومن مبادئ الاسلام الرفيعة عدم قتل النساء والأطفال حتى إذا تترس (احتوى) جنود العدو بهم ، وعدم قتل مايد المسلمين من رهائن إذا نقض أصحابهم العهد وقتلوا رهائن المسلمين ، فالشرعية الاسلامية تقرر أن الوفاء مقابل الغدر خير من مقابلة الغدر بالغدر » .

وكان فارس الخورى يرى أن مسيحى الشرق أخلص واحفظ للمسيحية من مسيحى أوربا . وكان يرى أن المتدين سواء كان مسلما أو مسيحيا هو مفتاح الشخصية العربية . ولم يقل (كما قال الموارنة فى لبنان) ان نصارى سوريا هم كذا فى المائة فلا بد لهم من كذا منصب فى الدولة . فقد كان يعلم أن مثل هذا القول يفتح باب الفتنة الطائفية . ولقد حصل برضى المسلمين على منصب رئاسة الوزارة ثلاث مرات ، ورشحوه لرئاسة الجمهورية فأبى ... رحمه الله (١) .

تقرير للأستاذ منير شفيق (٢) :

يقول المفكر الفلسطينى المعاصر الأستاذ منير شفيق : « كان الاستنتاج السريع السطحي يقول ان كل حديث عن الاسلام ، أو التاريخ العربى الاسلامى ، يستبعد المسيحيين العرب بالضرورة ، ويفترض أن الأمر لايعنهم ، إن لم يفترض أنه موجه ضدهم . وسادت أفكار لا ترى انخراطهم فى الحياة العامة ممكنا إلا فى ظل العلمنة والديموقراطية الغربية . بل جرى تقليد خلال المائة سنة الماضية يحصر الخيار أمامهم فيما بين عددمن أنظمة الحكم ماعدا نظام الحكم فى الاسلام ، أى أصبح من المتداول أن يختار المسيحى العربى الرأسمالية ، أو الاشتراكية الديمقراطية ، أو الشيوعية ، أو رأسمالية الدولية . وقد اعتبر ذلك منطقيا ينسجم مع روح العصر وخياراته ، أما فى المقابل ، فكان من غير المنطقى أن يختار نظام الاسلام ..

(١) د. فهمى الشناوى — المرجع السابق .

(٢) من مقال للأستاذ منير شفيق فى جريدة « الشعب » المصرية عدد (٢) مايو ١٩٨٩ .

« لا يقول الدين المسيحى للنصارى أى نظام سياسى — اقتصادى — اجتماعى يختارون . فهو لم يطرح نظام حكم محدد . ولهذا فمن حقهم أن يختاروا هذا النظام أو ذاك . ومادام الأمر كذلك ، فلماذا لا يكون من حقهم ، أو من المنطقى ، أن يختاروا الاسلام لهم دارا ونظاما ؟ وذلك أسوة ببقية أنظمة الحكم الأخرى — لو افترضنا جدلا جواز وضعها كلها على قدم المساواة عند تحقيق الاختيار . المهم هنا — من جهة نقطة الانطلاق — اعتبار الاسلام على الأقل أحد الأنظمة المطروحة من بين خياراتهم الأخرى ، ومن ثم يُرفع الحاجز الذى يمنع المسيحى العربى المعاصر من أن يختار الاسلام له وللأمة نظاما إذا رغب فى ذلك ، وهو أمر لا يتناقض مع استمراره مسيحيا مؤمنا » .

ويمضى الأستاذ شفيق موضحا « أن السبب الكامن وراء وضع ذلك الحاجز يرجع إلى مرحلة السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية ، وهى المرحلة التى سيطرت فيها الثقافة الغربية . فهذا الحاجز من نسج تلك الثقافة . وقد قام على أساس إيهام المسيحى بأن الاسلام يعنى اضطهاده وإذلاله وإفقاده حق المواطنة . وبأن نموذج الغرب يحقق له المساواة ويمتعه بالحرية . أما من الجهة الأخرى فعندما يطلع المسيحى العربى هذا الطعم يصبح فى مواضع الشبهات فى نظر المسلم بسبب علاقته بالغرب ، وموقفه السلبي من الاسلام . كما امتدت أيدي مدارس التغريب إلى إيهام المسلم المثقف أن الاسلام يعنى التأخر والتخلف ، وذلك ليكون للغرب هنا أيضا فئات متغربة فقدت أصولها وجذورها .

ولقد أراد الاستعمار من وراء إفقاد المسيحى العربى هويته الحضارية ونكران تاريخه ، حرمانه حتى من نسبه إلى العروبة . وبهذا لا يعود قادرا على الإجابة « أنا عربى » أو « أنا أنتسب إلى أمة العرب » حين يسأل نفسه : من أكون ؟ لأنه يفقد ذلك الانتساب إذا كان حذرا من الاسلام ويخشى المسلمين .

ويقول الأستاذ شفيق : « ان أجداد المسيحيين العرب نظروا إلى تلك القضايا نظرة مختلفة عن نظرة الغرب . فقد عاشوا ثلاثة عشر قرنا كاملة فى ظل أنظمة إسلامية — بهذا القدر أو ذاك ، وطبقوا فى معاملاتهم الاقتصادية

وحياتهم المدنية والاجتماعية أحكام الشريعة الاسلامية مع مراعاة أحكام دينهم حيثما اقتضى الأمر . ولم يكن يخطر ببالهم أن ثمة نظاما آخر في العالم يشكل بديلا أفضل . وذلك على الرغم من أن تلك القرون عرفت مستبدين جائرين الحقوا بهم في بعض الفترات ، وأيضا بجماعة المسلمين ، ضيماً وظلماً . ومن ثم فإن غربة بعض المسيحيين المعاصرين عن النظام الاسلامي مسألة حديثة . أو إنها نتاج « الحداثة » ، فقد رافقت الهيمنة الاستعمارية ، ونهلت من ثقافتها ، وحملت مقولاتها .

ومازلنا مع الأستاذ منير شفيق إذ يقول : « إذا بحث المسيحي العربي عن تاريخه وجده بمعظمه تاريخ العرب والمسلمين . فهل من الممكن أن تكون معركة « واترلو » معركته بدلا من معركة « اليرموك » ؟ .. وهل يمكن أن يعتبر جده ريكاردوس قلب الأسد بدلا من صلاح الدين ؟ ثم إذا بحث في تراثه الحضارى فسيجده في الحضارة العربية الاسلامية فلسفة وشعرا وأدبا وعلوما وتقاليده اجتماعية وفنوننا شعبية وليس في أى حضارة أخرى . وينسحب هذا أيضا على أنماط الانتاج التى عاشها ، وينطبق على القوانين التى تحكمته في مسار تطوره التاريخي » .

« إن المسيحيين العرب إذا انتزعوا من الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي يصبحون بلا حضارة ولا تاريخ . أى يصبحون بلا مجرى أو مسار ، أى بلا مستقبل أيضا . وهذا ماأراده الغرب لهم . وهو أسوأ ممايمكن أن يحل بمجموعة بشرية من اضطهاد ونكال ، وتدمير ، وذلك حين تُقتلع من جذورها ، وتُقطع عن مسار تاريخها ، فتصبح خشبا مسندة لا أشجارا عميقة الجذور طيبة الثمر يانعة الاخضرار .

على أن هذا الاقتلاع ليس إلا عملية قسرية فرضها الاستعمار فرضا ضد الواقع الموضوعي للمسيحيين وعلاقتهم بالاسلام والمسلمين . إن جمهور المسيحيين العرب جزء من الأمة العربية الاسلامية ، وإن تاريخها تاريخهم ، ومعاركهم معاركهم ، وانتصاراتها انتصاراتهم ، وهزائمها هزائمهم ، وثقافتها ثقافتهم ، ومستقبلها مستقبلهم .. وإذا افترقوا عن مواطنهم المسلمين ففى العقيدة ومكان الصلاة فقط . بل إن ذلك الفرق هو جزء من الحضارة العربية

الإسلامية .. فهي حضارة تعددية ، فالاسلام حتى من الزاوية الدينية أقر هذه التعددية ، وشرع لها نظاما وأصولا ..

إن وقوف النصراني العربى على الأرض نفسها التى يقف عليها المسلم العربى هو الطريق إلى إقامة علاقات سليمة وعادلة بينهما ، وذلك بدلا من المحافظة على قشرة واهية من المجاملات الشكلية وعبارات الود السطحية ، بينما ينخر السوس الغربى فى الأعماق ..

ثم يقول الأستاذ منير شفيق : « أما من الجهة المقابلة ، فهناك كلام آخر يمكن أن يقوله النصارى العرب والشرقيون عموما حول مسيحية الغرب نفسه . بل لعل أمامهم مهمة كبرى حتى بالنسبة إلى المسيحية ، وهى تخليصها من التشويه الغربى الذى لحق بها . فالغرب عندما تبناها لم يتشكل على صورتها الأساسية ، وإنما أخرجها على صورته وشكله ومثاله . ولهذا لا تستطيع مسيحية البلاد العربية أن تجد خيوطها موصولة مع تلك المسيحية التى طوعت فى الغرب لتخدم نظام العبودية ، ثم نظام الأقطاع ، ثم نظام الرأسمالية .. وواكبت الحملات الصليبية ، ثم المجازر الجماعية التى ارتكبت بحق الهنود الحمر فى الأمريكتين ، وذهبت مع المعمرين العنصرين إلى أفريقيا ، وصاحبت تجارة العبيد فى سوق الملايين إلى أمريكا (نصفهم على الأقل ماتوا فى الطريق) . ثم وصل الأمر إلى مباركة بعض الكنائس البروتستانتية الغربية لقيام دولة الاغتصاب الصهيونى فى فلسطين . فهذه ليست المسيحية التى انتقلت من ربوع فلسطين إلى الغرب ..

ثم ينهى الأستاذ منير شفيق مقاله الضافى بهذا النداء : « لقد أزفت ساعة التخلص من هيمنة الغرب على العقول والنفوس ، وفضح تحامله على الاسلام ، وبهذا تتأسك أيدى المسلمين والمسيحيين تحت رايات الاسلام لتحرير البلاد سياسيا واقتصاديا ، بل ثقافيا وحضاريا ، وذلك من أجل إعادة الوحدة الصحيحة ، وصياغة واقع البلاد على صورة تجعله استمرارا منطقيا ومشروعا لتاريخ الأمة وحضارتها .. لا صورة ممسوخة للغرب ، تابعة له » .

إنتهى ما اقتبسناه من مقال الأستاذ منير شفيق .

وفي حديث المفكرين الاسلاميين المعاصرين عن « المشروع الحضارى الاسلامى » يسوقون الكثير من الأدلة التاريخية والعقلية على أن « مشروعهم » لايتعارض قط مع ماابتكره العقل الشرقى والتجربة الانسانيةمن صور لنظم الحكم الحديث ، وهو (أى الاسلام) لايتناقض أبدا مع « الديمقراطية » ، فقد سبق أن طبقها المسلمون بأوسع معانيها فى صدر الاسلام وفى فترات أخرى من تاريخه ، وإن كان ذلك باسم الشورى ، والمعول هنا على المضمون لا على الاسم . وهم يؤكدون أن الشورى فى الاسلام ملزمة للحاكم ويدللون على هذا بكثير من وقائع التاريخ .

ويقول الاسلاميون ان فكرة « الشورى » هى جوهر الديمقراطية ومحورها . وحسب السلف أنهم وضعوا قواعد تكفل اختيار الأمة لحاكمها الذى ترتضيه وتتوسم فيه الكفاءة لهذا المنصب الخطير . ومن هذه القواعد وضع شروط حصيفة لمن يرشح للمنصب ، وقد سبق أن اشرنا إليها ، ومنها أن يقوم بترشيح اسم الخليفة أو أمير المؤمنين النخبة من أهل السياسة والعلم والنفوذ ، وهى جماعة أهل الحل والعقد ، ثم لا يكون هذا الترشيح شرعيا وناظرا إلا بقبول الناس كافة له بطريق المبايعه » .

وفي هذا يقول الأستاذ جلال كشك « وحسب السلف الصالح أنهم أقروا مبدأ البيعة ، أى جعل الشرعية لا تكتمل إلا بموافقة الأمة ، فالحكم لا يغتصب ، ولا يورث بالدم الأزرق ، ولا ينتزعه قائد منتصر ، وإنما القيادة السياسية (أهل الحل والعقد) ترشح وتختار ، ثم تعرض الأمر على الأمة أو على الجماهير معترفة بحقها فى الرفض أو حتى الخلع ، وكله حدث .. فقد قتلت الجماهير أحد الخلفاء (عثمان) ، ورفضت الجماهير وبعض أهل الحل والعقد خليفة آخر .. ورفض الحسين خلافة يزيد .. إلخ . ورأى الرافضون أن من حقهم بل وواجبهم الاسلامى مقاتلة الخليفة أو الأمير المرفوض حتى يخلعوه^(١) .

(١) محمد جلال كشك — بحث فى جريدة الشعب المصرية عدد ٢٣ / ٦ / ١٩٩٢ .

وفي الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في يونيو ١٩٩٢ ذكر الأستاذ فهمي هويدي أن الأستاذ عباس محمود العقاد عندما أصدر كتابه « الديمقراطية في الاسلام » في بداية الخمسينات ، قرر في مستهله أن الاسلام هو الذى أنشأ الديمقراطية لأول مرة في تاريخ العالم .. كما أنه في هذا العام (١٩٩٢) أصدر الشيخ يوسف القرضاوى فتوى مع الديمقراطية ، وأخرى مع تعدد الأحزاب في الدولة الاسلامية شريطة الانحل الديمقراطية حراما ، أو تحرم حلالا^(١) .

والواقع أن الاسلام لم يكن رائدا في الحكم « الديمقراطية » وحسب ، وإنما بشر منذ خمسة عشر قرنا بالأفكار الحديثة التي تزدهو بها الحضارة الغربية الآن ، في ميادين الحرب ، وحقوق المدنيين في الأراضي المحتلة ، ومثال ذلك :

— في حالة الحرب لا يناجز المسلمون خصومهم إلا بعد إعلامهم بفسخ الهدنة (أو المعاهدة) ، ومضى وقت كاف ليُعلم أمير الخصم رعاياه في أطراف البلاد ، حتى لا يؤخذوا على غرة .

— كانت أوامر رئيس الدولة الاسلامية لقائد جيش المسلمين صريحة في عدم قتل الشيوخ (المسنين) أو النساء أو الأطفال ولو كانوا في صفوف العدو المحارب . وعدم قطع الشجر أو إتلاف الزروع . وعدم إزعاج رجال الدين غير المسلمين الذين يتعبدون في معابدهم وصوامعهم .

أوصى الخليفة الأول أبو بكر الصديق قائده أسامة بن زيد في فتح الشام قائلا له ولجنوده : « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا (بمن تقتلون من جنود العدو) ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة . ولا تقطعوا نخلة ، ولا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام

(١) فهمي هويدي — مقال في جريدة الشعب المصرية عدد ٢٣ / ٦ / ١٩٩٢ .

قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوههم وما فرغوا أنفسهم له » .

كان هذا في أخريات العصر القديم ، وبدايات العصور الوسطى ، حين كانت جيوش الفرس والروم وغيرهم من الأمم لاتعرف في غزوها مبدأ ولا إنسانية ، فالمهزومون لديها عبيد أذلاء ، دمهم ومالههم وعرضهم مباح للغازى الذى يرقص جنوده بنشوة النصر والخمر على أشلاء عدوهم .

حق غير المسلمين في الدعوة إلى عقيدتهم :

في الدولة الاسلامية لا يقتصر حق غير المسلمين على وجوب رعاية كنائسهم ومعابدهم ، وحرية ممارستهم لشعائهم الدينية . وإنما ذهب المفكرون الاسلاميون المحدثون إلى أبعد من هذا بكثير عندما تحدثوا عن حق غير المسلمين في دعوة غيرهم إلى عقيدتهم هم ، تماما كحق المسلمين في دعوة غيرهم إلى الدين الاسلامى .

يقول الدكتور اسماعيل الفاروق أستاذ علم الأديان المقارن بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة : « لا جدال في أن غير المسلم له أن يعبر عن رأيه في الإطار القانونى الذى يخضع له الجميع ، وفي الحدود التى لاتتجرح مشاعر الأغلبية التى احترمت — ابتداء — حق الأقلية في أن تعبر عن رأيها .. والمسلم ملزم بمقتضى إيمانه ، وبمقتضى طبيعة دعوته المنطقية المتعلقة بالقيم أن يقدم الاسلام للذى في إطار « الحكمة والموعظة الحسنة » بالتعبير القرآنى .

وإذا لم يقتنع غير المسلم بالحقيقة التى قدمها الاسلام ، فإنه يظل صاحب حق في درجة غير منتقصة من الاحترام . ويجب أن نتذكر أنه عندما سمع مسيحيو نجران دعوة النبى ﷺ ذاته ، واهتدى بعضهم ولم يهتد البعض ، فإنه عليه الصلاة والسلام استمر في معاملتهم بنفس الأسلوب من كرم الضيافة .. ، واعادهم إلى ديارهم في حراسة وصحبة شخص موثوق به ليقدم لهم العون في شئونهم الخاصة . إن الضمير الحر للانسان يمنحه كرامة منقطعة النظير ، وقد عرف جميع أنبياء الله كيفية احترامها^(١) .

(١) د. اسماعيل الفاروق — المرجع السابق .

وقبل ذلك أعلن هذا الرأى عالم الهند الكبير الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى رسالته حول حقوق أهل الذمة التى كتبها فى عام ١٩٤٨ لتسترشد بها لجنة وضع دستور جمهورية باكستان حيث قال : « سيكون لغير المسلمين فى الدولة الاسلامية من حرية الخطابة والكتابة ، والرأى والتفكير ، والاجتماع ، ماهو للمسلمين سواء بسواء . وسيكون عليهم من القيود والالتزامات فى هذا الباب ما على المسلمين أنفسهم . فسيجوز لهم أن ينتقدوا بحرية الحكومة وعما لها ، وحتى رئيس الحكومة نفسه ، ضمن حدود القانون .

وستكون لهم (أى لغير المسلمين) الحرية الكاملة فى موح نحلهم . ولن تعترض الحكومة على انتقال أحد من غير المسلمين من نحلة غير إسلامية إلى أخرى . ولكنه لن يكون لمسلم أن يستبدل بدينه نحلة أخرى ، مادام فى حدود الدولة الاسلامية . وإن ارتد فسيقع وبال ارتداده على نفسه ..

ولن يكره غير المسلمين فى الدولة الاسلامية على عقيدة أو عمل يخالف ضميرهم . وسيكون لهم أن يأتوا كل ما يوافق ضميرهم من الأعمال ، مادام لا يصطدم بقانون الدولة^(١) .

وحدة الأديان السماوية ، ودعوة إلى التلاقى :

فى كتابه القيم « مواطنون لا ذميون » أورد الأستاذ فهمى هويدى العديد من النصوص الدينية التى تثبت وحدة الأديان السماوية ، ووحدة البشر فى نظر الاسلام ، وتدعو إلى بناء حياة مفعمة بالمودة والرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾
(الحجرات : ١٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (النساء : ١) .

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أبائكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من

(١) أبو الأعلى المودودى — نظرية الاسلام وهدية ص ٣٦١ .

تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى .
ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .. » (من خطبة الرسول في حجة الوداع) .
ونلاحظ في تلك النصوص أن خطاب الله سبحانه وتعالى ، وخطاب رسوله محمد ﷺ لم يُوجه للمسلمين فقط ، وإنما هو موجه للناس كافة .
وقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام في صلاة آخر الليل : اللهم إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وإن العباد كلهم اخوة — (أبو داود) .

ثم يورد الأستاذ فهمي هويدي آيتين قرآنيتين توضحان الحكم الإلهي في شأن أصحاب الديانات الذين يؤمنون بالله ، ويأتون الأعمال الصالحة :
﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ (البقرة : ٦٢) .
﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (المائدة — ٦٩) .

ويقول الأستاذ هويدي : « هنا تفتح الآيات باب التلاقى بين المسلمين وغيرهم ، معلنة ان المسلمين مؤمنون بكل الأنبياء والرسل ، وإن جوهر الرسالات السماوية واحد في غير تعارض أو تنافر » .

ومن حسن الطالع أن آباء الكنيسة الكاثوليكية استجابوا الآن لدعوة التلاقى العظيم بين المسيحية والاسلام ، وأقرّوا بما سبق أن قرّره الآيتان القرآنيتان . ففي خطاب ألقاه البابا « بول الثاني » أمام جمهور من الشباب المسلم في المغرب في ٢٠ / ٨ / ١٩٨٥ يقول^(١) : إن الانسان كائن روحي ، ونحن المؤمنين نعلم أننا لانهيش في عالم مغلق . إننا نؤمن بالله ، ونحن نطلب مرضاة الله ، والكنيسة تنظر باحترام إلى أعمالكم الدينية ، وتعترف بقيمتها ،

(١) من بحث للأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن في جريدة الشعب المصرية عدد ١٩٨٨/١٢/٦ .

وبثراء تقاليدكم الروحية . وإننى أعتقد أننا المسيحيين والمسلمين سوف نعترف فى سرور بالقيم الدينية المشتركة بيننا ، وسوف نتوجه بالشكر لله على هذه النعمة .

« نحن وأنتم نؤمن بالله العادل الرحيم ، عدلا كاملا ورحمة تامة . ونؤمن بأهمية الصلاة والصيام والزكاة والتوبة والعفو . ونؤمن بأن الله ، يوم القيامة ، سيكون رحيمًا بكم ، وسيكون قاضيا رحيمًا بنا ، ونثق أن الله تعالى سيكون راضيا عنا بعد البعث والنشور ، ونعلم أننا جميعا سنكون راضين عنه . إن الأمانة تقتضي أن نعترف باختلافات بيننا وأن نحترمها . ولقد اعتدنا فى الماضى أن يسيء كل طرف منا فهم الطرف الآخر . ولقد واجه بعضنا البعض الآخر ، واستهلكتنا المجادلات والحروب . وأحسب أن الله تعالى يحثنا الآن على نبذ عاداتنا تلك القديمة . إن علينا أن يحترم بعضنا البعض ، وأن يحث بعضنا بعضا على عمل الخيرات على الطريق الإلهى المستقيم » .

ويعلق الدكتور أحمد عبد الرحمن على هذا الخطاب قائلا : « وهكذا نسخ البابا بول الثانى ، ومن قبله البابا بولس السادس ، اكواما من الأحكام الخاطئة ، والاقتراءات الفاضحة ، والتقولات الحاقدة ، ضد الاسلام والمسلمين . فلم يعد المسلمون وثنيين ، يعبدون آلهة عديدة ، ولم يعد المسلمون يعبدون محمدا ، بل هم موحدون يعبدون الواحد الأحد . ويشهد رئيس الكنيسة الكاثوليكية بقيمة العبادات الاسلامية ، ويعترف بثناء تقاليدهم الروحية ، ويطلب اتباعه بتوثيق العلاقات معهم ، لحماية القيم الخلقية ، ومواجهة الفراغ الذى أحدثته الفلسفة المادية اللاحادية » ..

ويشفع الدكتور أحمد عبد الرحمن خطاب الباب « بول الثانى » بما جاء فى دستور الكنيسة ذاتها وهذا نصه : « إن خطة الخلاص تشمل كل أولئك الذين يؤمنون بالخالق ، ومن بينهم — أولا — المسلمون ، الذين يؤمنون بإبراهيم عليه السلام ، ويعبدون الله الواحد الرحيم الذى سيقضى فى أمر الناس يوم الدين » . ثم يقول : « ويتأكد هذا المعنى الجديد بتفصيل أوسع فى إعلان الكنيسة الذى جاء نصه كما يلى : « وأن الكنيسة تنظر باحترام إلى المسلمين أيضا بوصفهم يعبدون الله الواحد ، الحى القيوم ، الرحيم ، علام الغيوب ،

خالق السماوات والأرض ، الأحد الذى كلم الناس . وهم (المسلمون) يحاولون بكل إخلاص إتباع أوامره تعالى مقتدين بإبراهيم بوصفه مثلهم الأعلى ، وهو النبی الذى تشير إليه العقيدة الاسلامية فى رضا وإرادة وترحاب . وهم يوقرون المسيح — لا كإله — بل كنبى ، وهم يجعلون أمه مريم .. ، وهم يترقبون يوم البعث .. ويقدرون الحياة الأخلاقية ، ويعبدون الله — أساسا — بالصلاة والزكاة والصيام .

وفى مقال آخر بعنوان « الكنيسة والمصير العربى » يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن ان الاسلاميين يتمنون أن يقتنع الأقباط بأن المجتمع الاسلامى ، والحكم الاسلامى ، والدولة المسلمة ، هى الضمانات الحقيقية لازدهار الايمان المسيحى ، وليس العلمانية المعادية للأديان .

« وللتذكير فقط أقول : إن الاسلام يرفض أن يتنصل المسيحى (الذى يعيش فى المجتمع المسلم » من عقائد المسيحية أو آدابها أو شرائعها الانجيلية ، والله تعالى يقول فى قرآنه : ﴿ وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ﴾ ، ولذلك يجب أن يحترم القبطى دينه وأن يعمل به .. ونحن نحزن أشد الحزن حين نرى قبطيا أو مسلما يعتنق الفلسفة المادية الملحدة ، ويروج لها فى كتبه أو مقالاته ، ونأسف كثيرا حين نرى بعض القيادات القبطية تسأل عن أفضل الكتاب ، فتذكر بعض العلمانيين المشهورين !

« ولهذا أسأل نفسى دائما — الحديث مازال للدكتور أحمد عبد الرحمن : ماذا يفضل الأقباط ياترى : الاسلام أم العلمانية ؟ الاسلام الذى يرفض تنصل المسيحى من دينه ، أم العلمانية المادية الملحدة التى قوّضت الايمان المسيحى فى أوروبا الغربية ، وقاتلته قتالا جباناً فى أوروبا الشرقية ؟^(١) .



(١) من مقال فى جريدة الشعب المصرية فى ١ / ١٠ / ١٩٩١ .

خاتمة

عن الفتنة الطائفية

خاتمة : عن الفتنة الطائفية

لا أظن أن من يقرأ هذا الكتاب يصبح فى حاجة إلى حديث مستفيض عن أحداث الفتنة الطائفية التى أبتليت بهامصر فى السنوات الأخيرة ، ولكن — مع هذا — لاضمير من تناول هذا الموضوع فى عجلة نعرض فيها رأينا عن أهم أسباب تلك الفتنة .

لقد حظيت تلك الأحداث وما صاحبها من مظاهر تطرف بتغطية إعلامية واسعة ، وتناولها بالبحث والتحليل عدد كبير من الكتاب ، بعضهم اهتموا إلى الحقيقة أو اقترب منها ، وكشف عن بعض جذور المشكلة ، والبعض الآخر ، قاده فى البحث أهواؤه المذهبية أو السياسية ، فلم يقدم علاجاً نافعا بل ربما زاد الفتنة اشتعالا .

وهى فتنة ولا شك ، طالما هنالك من يعملون بسوء النية على إبقاء جمراتها حية . على أن كثيرين أجمعوا على أن أسبابها ترجع فى المقام الأول إلى الأزمة الاقتصادية السائدة . فذكروا شيوع البطالة فى جماهير واسعة من الشباب المتعلم ، والفقر الناشب مخالفه فى ربوع الصعيد ، والمناطق الفقيرة العشوائية التى تضخمت على تخوم المدن الكبرى وحرمت من الخدمات والمرافق الأساسية ، ثم ماتولد عن كل ذلك من يأس وإحباط ونزعات عدوانية .

وقد نسلم بصحة تلك الأسباب ، ولكننا نضع فى مقدمتها جميعا ، وعلى رأسها سببا آخر نراه الأهم ، والأجدر بالعلاج السريع ، إنه الجهل . فلو أن لدينا تربية دينية صحيحة بحيث يعرف المسلم والمسيحى حقائق دينه وما يفرض به من رحمة وسماحة ، لما وقف أى منهما فى وجه الآخر ، يعاديه ويقاتله .

ولو أن لدينا تعليما جيدا ، يستوعب أبناءنا جميعا ، ويعلمهم تاريخ

وطنهم ، ويكشف لهم عن أجداد آبائهم العظام ، ومواقفهم الوطنية .. لما فكروا
قط في التناؤد والعدوان على الأرواح والأموال وحرمات بيوت الله ، كنائس
ومساجد .

فى رأى أن الفقر ليس هو العنصر الحىوى فى الفتنة الطائفية ، بل الجهل
وغياب الحس الحضارى . أذكر مما نشرته الصحف منذ حوالى عامين ، عن
أحداث عنف وقعت فى حى امبابة بين مسلمين ومسيحيين ، اعتدى فيها على
حرمة مسجد ، وعلى المصلين فيه ، وأشعلت النار فى كنيسة .. أذكر أن سببها
المباشر نزاع نشب بين عائلتين نازحتين من الصعيد ، ليستا فقيرتين ، بل تملكان
الكثير من المال ، فأفرادهما من تجار الدواجن وأصحاب المقاهى الرائجة .

قالت الصحف عن تلك الأحداث ان « معلمة » من أسرة مسيحية
صعيدية ، أرادت أن تكيد لعائلة مسلمة من التجار أيضا ، اعتدى أحد أبنائها
على ابن « المعلمة » المسيحية ، فلم تجد وسيلة للكيد والانتقام إلا أن تذيب
من شرفة منزلها ، وبصوت زاعق ، قداسا مسيحيا من جهاز تسجيل وضعت
فى الشرفة كى يشوش على مكبر الصوت الذى يذيع شعائر الصلاة من مسجد
مجاور . وسرعان ما اشتعلت الأحداث بعد أن قفزت فيها جماهير المتحمسين
المتعصبين ، وأكثرهم أميون ، وبعضهم من أنصاف المتعلمين .

إن ثراء الأسرتين هنا ، المسيحية والمسلمة ، لم يمنعهما من الطيش
والاندفاع المجنون ، بل ربما دفعهما إلى ذلك دفعا ، فالثراء مع الجهل يكسب
صاحبه شعورا بالاستعلاء ، ويفريه بالبغي والتناول .

أعلم تماما أن الجماهير التى قفزت إلى تلك الواقعة فأشعلت أوراها ،
انطلقت من دوافع شتى : البؤس الحاقد ، والضيق بالحياة الرديئة ، وتوتر
الأعصاب الناجم عن الازدحام الرهيب والضوضاء المجنونة التى لا ضابط
لها .. إلخ . ولكن يبقى أن الدافع الأهم والشرارة الأولى انطلقا من جهل
مطبق ، جهل بالدين ، وجهل بالتاريخ ، وجهل عام .

وواضح أن مكبر الصوت — فى هذه الحادثة وغيرها — له دور غير
منكور . وليسمح لى القارىء هنا بشيء من الاستطراد الذى أراه مفيدا .
فالاستخدام الغشيم لمكبرات الصوت فى المناسبات الدينية ذو أثر سئى فى

المسألة الطائفية ، حتى ولو لم يظهر هذا الأثر على الألسنة ، وظل مكتوما داخل الصدور .

ولو أننا مجتمع متحضر ، على قدر كاف من التعليم ، لأدركنا أن العبادة يجب أن تؤدي في خشوع وهدوء ، دونما حاجة إلى مهرجانات يومية . والقاعدة الأصولية في الفقه الإسلامي تمنع الضرر . فاصوات الشعائر لا ينبغي أن تتعدى جدران الكنيسة أو المسجد ، فقد يوجد مرضى في البيوت المجاورة في ميسس الحاجة إلى الهدوء ، وهناك طلبة عاكفون على المذاكرة لا ينبغي تشتيت انتباههم . بل هناك عابدون يريدون أن يتجهدوا في جوف الليل ، ومكبر الصوت المنبعث من المسجد ! يُزعج خلوتهم سواء أثناء صلاتهم أو تلاوتهم القرآن بتدبير !

ماذنب كل هؤلاء وغيرهم عندما يفتح عليهم خادم المسجد مكبر الصوت قبل صلاة الفجر بساعة ، يذيع عليهم — دون طلب منهم ، ودون مبرر شرعى — ما يُسمى بشعائر صلاة الفجر التي ينقلها المذياع من مسجد سيدنا الحسين أو السيدة زينب كل ليلة على مدار العام ؟ ثم هل هي شعائر حقا ؟ هل الإنشاد الدينى الذى يذاع قبل أذان الفجر شعيرة إسلامية ؟ إن الشعيرة الوحيدة التى يجب إذاعتها هى الأذان الشرعى الذى لا تتعدى كلماته خمس عشرة كلمة . وكل ما زاد على هذا هو بدعة فى الدين بإجماع الفقهاء قدامى ومحدثين .

يقول فضيلة الشيخ سيد سابق فى كتابه المشهور « فقه السنة » : « الأذان عبادة ، ومدار الأمر فى العبادات على الاتباع ، فلا يجوز لنا أن نزيد شيئا فى ديننا أو ننقص منه . وفى الحديث الصحيح : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ » أى باطل .

وينقل عن فقهاء الحنابلة قولهم فى مسألة « التسبيح قبل الفجر » : « وما سوى التأذين قبل الفجر من التسبيح والنشيد ورفع الصوت بالدعاء ونحو ذلك فى المآذن ، فليس بمسنون ، وما من أحد من العلماء قال انه يستحب ، بل هو من جملة البدع المكروهة لأنه لم يكن فى عهد الرسول ﷺ ، ولا فى عهد أصحابه ، وليس له أصل فيما كان على عهدهم يُرد إليه .

ويقول الشيخ سيد سابق « ان الجهر بالصلاة والسلام على الرسول ﷺ عقب الأذان غير مشروع ، بل هو محدث مكروه » . واستند في ذلك إلى قول ابن حجر في الفتاوى الكبرى . ويقول : سئل الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية عن الصلاة والسلام على النبي عقب الأذان فأجاب : « أما الأذان فقد جاء في (الخانية) أنه ليس لغير المكتوبات ، وإنه خمس عشرة كلمة وآخره عندنا لا إله إلا الله ، وما يذكر بعده أو قبله كله من المستحدثات المبتدعة ، ابتدعت للتلحين لا لشيء آخر ، ولا يقول أحد بجواز هذا التلحين ، ولا عبرة بقول من قال : إن شيئا من ذلك بدعة حسنة ، لأن كل بدعة في العبادات على هذا النحو فهي سيئة ، ومن ادعى أن ذلك ليس فيه تلحين فهو كاذب » .

وينقل أيضا عن عبد الرحمن بن الجوزي قوله : « وقد رأيت من يقوم بليل كثير (أى بجزء كبير من الليل) على المنارة فيعظ ، ويقرأ سورة من القرآن بصوت مرتفع ، فيمنع الناس من نومهم ، ويخلط على المهتجين قراءتهم ، وكل ذلك من المنكرات » ، وقال الحافظ في الفتح : « ما أحدث من التسبيح قبل الصبح وقبل الجمعة ، ومن الصلاة على النبي ﷺ ، ليس من الأذان لا لغة ولا شرعا » (١) .

والخلاصة أن الفقهاء أفتوا بأن كل ما يرفع به المؤذن صوته زيادة على الأذان الشرعى « باطل » و « غير مشروع » ومن « المنكرات » و « المستحدثات المبتدعة » ، وعللوا حكمهم بأنه لا أصل لتلك المنكرات في الدين ، وإنما تزعم النائمين والمرضى والمتهجدين . وقد صدرت تلك الفتاوى في عصور لم يكن فيها مكبر الصوت قد اخترع بعد ، وإنما كان مجرد رفع المؤذن صوته بتلك « المنكرات » مدعاة للازعاج واستنكار الفقهاء ، فما بالنا الآن وهى تذاع بمكبرات صوت من كل حذب وصوب ؟!

حقا ان الدين الاسلامى دين حضارة وفوق ، وإنما شوه صورته الجهال منا ، وأتاحوا الفرصة لأعدائه فرموه بالتخلف .

(١) السيد سابق — فقه السنة المجلد الأول ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

منذ سنين قليلة خطر للمفكر الفرنسى الشهير روجيه جارودى — عقب دخوله فى الاسلام — أن يقضى شهر رمضان فى القاهرة ، واختار لاقامته حيا إسلاميا عريقا هو حى الحسين ، كى يملأ جوانحه — إلى جانب التعب — بعبق الاسلام . وأراد أن ينام فى أول الليل كى يستطيع النهوض فى منتصفه للتهجد كما تقضى السنة . ولكنه لم يستطع أن ينام ولا أن يتهجد ، بسبب غابة مكبرات الصوت المزروعة فى تلك المنطقة لإذاعة كل ما يخطر ومالا يخطر على البال من أنشطة البشر : أفراح ، ومآتم ، وأغانى شعبية من سرادقات ، وموشحات ، وإعلانات مدوية عن بضائع ، وأخيرا « شعائر صلاة الفجر » قبل موعد الصلاة بأكثر من ساعة .

ولم يقو المفكر الفرنسى على تحمل هذا العناء ، وضاق بالقاهرة كلها ، فقطع أجازته بعد يومين عائدا إلى باريس ، حيث يستطيع أن يكمل صيام رمضان فى هلوء وسكينة ! وعند سفره قال قوله كبرى : « الحمد لله الذى قدّر لى أن أدخل فى الإسلام قبل أن أرى المسلمين ! » . أى عار يلحق بنا .. !!

تحدث يوما فى هذا الأمر مع أحد مفتشى المساجد فروى لى هذه الحكاية التى وقعت له شخصيا ، قال : « كانت والدتى المسنة مريضة ، وتشكو آلاما مبرحة تمنعها من النوم ، فأعطيناها « مُسْكِنًا » ، وبدأت تستسلم للنوم ، وحمدنا الله ، ولكن لم يلبث « ميكروفون » قبل الفجر المنبعث من مسجد أمامنا مباشرة أن انطلق يلوى ، فهبت المريضة من مرقدها مذعورة . وتوجهت غاضبا إلى ذلك المسجد ، ولدهشتى لم أجد فيه أحدا من المصلين ، فقد كان الوقت مبكرا على موعد الصلاة ، وإنما وجدت خادما المسجد وقد وضع « المايك » أمام المذيع المفتوح ، واستلقى بجواره فى نوم عميق !

وبعد هذا الاستطراد ، نعود إلى حى امبابة . أجرت الدكتورة إقبال الأمير الأستاذة بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية ، والدكتورة نهى فهمى الأستاذة بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، دراسات ميدانية حديثة عن الأحوال الاجتماعية لسكان امبابة جاء فيها : تصل نسبة الأمية بين أهالى امبابة إلى ٤٦,٦ ٪ ، ونسبة من يقرأ ويكتب « بالعافية » ٢٢,٣ ٪ ، ونسبة التعليم

الأقل من المتوسط ١٦,٤ ٪ ، أى أن ٨٥,٣ ٪ من مجموع الأهالى ما بين أمى ودون المتوسط .

وتشير تلك الدراسات إلى أن السكان يفتقرون فى ١٥ مشكلة هى بالترتيب : طفح المجارى ، عدم النظافة ، كثرة الخرابات ، عجز المياه والكهرباء وانقطاعهما ، عدم الاهتمام بالخبز ، الضوضاء ، ضيق الشوارع وازدحامها ، عدم وجود جمعية استهلاكية ، ضيق المساكن ، تصدع المنازل لقدمها ، غلاء المعيشة ، عدم رصف الشوارع ، عدم وجود نادى للأطفال ، كثرة المقاهى ، ضآلة الخدمات الصحية ، مشكلات أخرى مصنفة . وقد لوحظ أن مشكلة الضوضاء جاء ترتيبها « الخامس » من خمس عشرة مشكلة كبرى .

وذكرت الاحصائيات التى حوتها تلك الدراسات أن ٥٦,٧ ٪ من أفراد العينة يسمعون أصوات الجيران وهم فى منازلهم ، وأن ٧٤,٤ ٪ من الأشخاص الذين يسمعون أصوات جيرانهم يتضايقون ويتضررون من ذلك . وهذا ناجم أولا عن عادة « الصوت العالى » ، ثم عن ضيق الحوارى وتلاصق المنازل .

واضح أن الحاجة أصبحت ملحة للاهتمام بالأحياء العشوائية التى لا تخلو منها مدينة على امتداد مصر ، ولن يكون هذا الاهتمام فعالا إلا فى إطار مشروع حضارى قومى شامل يعالج تلك المشكلات المتفاقمة ، على أن يكون على رأس أولوياته محور الأمية — كما فعلت دول كثيرة أقل منا شأنًا وحضارة — ووضع برنامج لإصلاحى تعليمى ، يكفل تعليما جيدا لكل أطفالنا ، ويقدم الدين الصحيح للأطفال والشباب ، ويذيب الجميع — مسلمين ومسيحيين — فى بوتقة القومية الواحدة ، ويؤهلهم للعمل المنتج ، ويعلمهم كيف يفكرون ، وكيف يسعدون بقيم السماء التى جاءت بها المسيحية والاسلام .

ولن يتوفر لنا تعليم جيد وفعال فى المجتمع دون معلم مؤهل ، يعرف تاريخ بلاده ، ويعرف دينه معرفة صحيحة ، يعى رسالته فى تربية جيل جديد ، وتتوفر له حرية المبادرة فى سبيل النهوض برسالته ، دون التقوقع فى اسار المنهج المدرسى .

نشرت الأهرام رسالة بعث بها الأستاذ الدكتور طاهر مرسى عطية وكيل

كلية التجارة ببورسعيد قال فيها : « كنا في ذلك الوقت تلاميذ صغاراً بالمرحلة الابتدائية في مدرسة مكارم الأخلاق الإسلامية بشارع بين الجنين بالعباسية ، حين أتى إلينا الشيخ على قرني أستاذ اللغة العربية والدين ، ليبلغنا أن إخواننا المسيحيين قد شرعوا في بناء كنيسة كبرى — هي التي يطلق عليها اليوم الكاتدرائية المرقسية بشارع رمسيس — وانهم يجمعون من بينهم التبرعات لبناء هذه الكنيسة ، وإن الكنيسة بيت من بيوت الله ، ومن يساهم في بنائها منا كأنه يساهم في بناء مسجد ، وإن الله سبحانه وتعالى سيرد لنا هذه المساهمة حسناً وحسناً . فأخذنا نتسابق في التبرع من مصروفنا الخاص والذي لم يكن يتعدى في تلك الأيام بضعة قروش أسبوعياً .

« كان بعضنا يتبرع بالملايم أو بنصف القرش (التعريفة) . ولما اكتمل لنا مبلغ رآه الشيخ على معقولا ، كَوّن منا مجموعة ورتب لنا لقاء بصحبته مع الباب كيرلس السادس بابا الأقباط الراحل ، واستقبلنا الرجل الفاضل أفضل استقبال ، ويشهد الله أنه تأثر بلقائنا ، وبما قدمناه من تبرع صغير غاية التأثير . وعندما أخذنا نتجاذب معه أطراف الحديث ، سمعنا منه ما أثلج صدورنا ، قال لنا إن دينكم دين عظيم ، وأن أحد دلائل عظيمته هو ما فعلناه نحن الصغار . وعندما لاحظ الباب ارتباطنا لعدم معرفتنا كيف نناديه ، وبماذا ندعوه عندما نخاطبه ، اقترح علينا أن نناديه « بالشيخ كيرلس » ، فضحك الشيخ على سرورا وطلب منا بدوره أن نناديه هو بـ « أبونا على » بدلا من الشيخ على .. وانتهت المقابلة وخرجنا في غاية السعادة .

« إننى — الكلام مازال لصاحب الرسالة الدكتور طاهر مرسى — أهدي هذا الموقف لمن يشككون في سماحة الاسلام وعظيمته ، ولمن يتخيلون أنهم يخدمون دينهم بالاساءة إلى دين الآخرين » (١) .

أرأيت — عزيزى القارئ — أهمية المدرس المؤهل الواعى ؟ وهل غياب مثل هذا المدرس الآن عن معظم مدارسنا يمكن أن يفسر النكسة التي أصابت علاقتنا بإخواننا المسيحيين ؟

(١) جريدة الأهرام فى ١٠ / ٥ / ١٩٩١ .

وعندما وقعت أحداث مؤسفة بين أفراد من المسلمين والأقباط في صعيد مصر في عام ١٩٩٠ كتب الأستاذ فيليب جلاب يقول : « أزعم أنني كمواطن مصرى عربى أعرف الاسلام كما يعرفه كل مسلم مستنير ، وأزعم أنه يشكل مع الحضارة الاسلامية الجانب الأساسى من ثقافتنا بعد أن استوعب كل العناصر الايجابية من الحضارات غير الاسلامية التى ساهمت فى تشكيل وجداننا . ولذلك أزعم بضمير مستريح أن كل ماحدث ويحدث فى المنيا وأبو قرقاص وبنى مزار وغيرها من البؤر المشابهة لا علاقة له بالاسلام ولا يقوم به مسلمون(١) .

□ * □

(١) جريدة الأهلـى المصرىة ١٤ / ٣ / ١٩٩٠ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الفصل الأول :	
بحوث المؤرخين عن أصل المصريين القدماء ، وأصل لغتهم .	١٥
أصل اللغة المصرية القديمة	٢١
الفصل الثاني :	
أسباب دخول الأقباط في الاسلام بعد الفتح العربى	٢٩
سياسة عمرو بن العاص والتزامه بعهدده	٣٦
الفصل الثالث : تعريب مصر	
هل الفتح الاسلامى هو الذى أزال فرعونية مصر ؟	٤١
تعريب مصر	٤٥
تكوّن الشعب المصرى العربى الواحد	٤٧
الفصل الرابع : مصر العربية في عصرها الحديث	
فكرة « الوطنية والاسلام »	٦٣
الأزمة الطائفية (١٩٠٨ — ١٩١١)	٦٧
أبجاء الوحدة الوطنية في ثورة ١٩١٩	٧٥
مصر للمصريين	٧٨
الأقباط ودستور ١٩٢٣	٧٩
الإخوان المسلمون والأقباط	٨١
الفصل الخامس :	
هل الثقافة الاسلامية تراث للمسلمين فقط دون الأقباط ؟ .	٨٣
أثر اللغة العربية في وجدان المسلمين والمسيحيين	٨٧
ميشيل عفلق والاسلام	٨٨

تابع فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
فكتور سحاب	٩٢
اختلاف التوجه بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية	٩٦
العالم العربى والنظام الدولى الجديد	٩٧
الأقباط والاسلاميون	١٠١
الفصل السادس :	
المسيحيون وتطبيق الشريعة الاسلامية	١٠٩
فارس الخورى والشريعة الاسلامية	١٢١
تقرير للأستاذ منير شفيق	١٢٤
حق غير المسلمين فى الدعوة إلى عقيدتهم	١٣٠
وحدة الأديان السماوية ودعوة إلى التلاقى	١٣١
خاتمة : عن الفتنة الطائفية	١٣٥



رقم الإيداع

١٩٩٣ / ٨٧١٥

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 5087 - 29 - 2

طبع بمطابع البلاغ

٢ شارع حسين حجازى - الدواوين - القاهرة

ت : ٣٥٤٩٥١٥ - ٣٥٦٣٤١٦

يصدر قريباً عن الدار :

الدليل الطبى للأسرة

إعداد

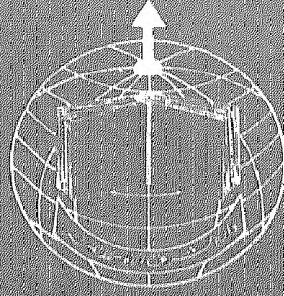
د . / سمير يعقوب

يصدر قريباً عن الدار :

مصريهون أم عرب

تأليف

الأستاذ / سليمان الحكيم



لماذا هذا الكتاب

من خلال الظروف السياسية التي تعيشها مصر ، والتي تتصل بصفة خاصة بأبناء شعبها مسلمين وأقباطاً ، كنا نشعر ككل المواطنين بكثير من القلق إزاء ما طرأ على العلاقة بين أبناء هذا الشعب الواحد من مسلمين وأقباط ... ولقد تأكد لنا من خلال قراءة هذا الكتاب أن المشكلة كلها ترجع إلى أمرين :

- ١ - الجهل بحقيقة الأصل العربي الواحد الذي يجمع هذا الشعب كله ، كما تجمع الديانات السماوية التي تخرج كلها من مشكاة واحدة .
 - ٢ - في الافتعال والتضخيم ودور الأصابع الأجنبية في تلك الأزمة الطارئة على شعب مصر والغريبة عنه وعن طبيعته وتكوينه .
- إزاء ذلك كله ... تأكد لنا أن هذا الكتاب يأتي في وقته تماماً ، ولبوذي دوراً كان يبحث في الحاح عمن يقوم به .. وكان لابد أن نقدم لشعبنا المصري هذا الجهد الذي بذله مؤلفه الواعي ...
- المؤلف في سطور :

- الأستاذ محمد المرشدي
- شغل العديد من المناصب السياسية
- وزير مفوض إعلامي في الستينات
- ترجم العديد من الكتب ، كما سبقت له في مجال التأليف جهود ملموسة .
- وأخيراً .. يكفينا أن نقدمه للقارئ من خلال هذا الكتاب

دار الشرق الأوسط للنشر

١٥٣ شارع الطيران - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٢٢٠٥٧٠٧

To: www.al-mostafa.com